نونية العقاد

يقول العقاد في سبب نظم هذه القصيدة :" كنا نقرأ أنا وصديقاى الشاعران النابغان " المازني " و" على شوقي " قصيدة " ابن الرومي " النونية التي يمدح بها " أبا الصقر" فلما فرغنا من تلاوتها وقضينا حق إطرائها ونقدها خطر لنا أن يعارضها كل منا بقصيدة من بحرها وقافيتها فنظم المازني قصيدته في مناجاة الهاجر، ونظم " شوقي " قصيدة في هذا المعنى ، ونظمت أنا هذه القصيدة ، فأهديتها إلى روح " ابن الرومي " وفيها يقول العقاد :

يُهنِيكَ يا زهرُ أطيارٌ وأُفنان
الطَّير يَنْشُد والأفنانُ عيدانُ
طُوباكَ لستَ بإنسان فَتشبهني
إني ظَمِئتُ وأنتَ اليومَ رَيان
هذا الربيعُ تجلَّى في مَواكبهِ
وهَكذا الدَهر آن بَعْدَها آنُ
تَفَتَحتْ عنه أكمامُ السماءِ رِضَى
وزفهُ من نَعيم الخُلْدِ رضوانُ
وشائِعُ النَّورِ في البُستان باسمةٌ
والأرضُ حَاليةٌ ، والماءُ جَذْلانُ
الشمسُ تَضْحَكُ والآفاقُ صافيةٌ

جَلْــواء والــرَّوضُ بالأُثمــارِ فَيْنــانُ

وللنَّســـيم خُفـــوقٌ فـــي جَوانِبـــهِ
وللطُيـــــورِ تَـــــرانيمٌ وألحـــــانُ
فـــي كـــلُ رَوْضٍ قُـــرى للزَّهِـــر يَعْمُرهَـــا
يـــا حَبـــذا هـــي أبيـــاتٌ وسُـــكانُ
مُسْتَأنسَـــاتٌ سَـــرى مـــا بَيْنهـــا عَبـــق
كمـــا تَراسَـــلَ بالأشَـــواقِ حِبَـــان
الـــوَردُ يحمـــرَ عُجْبـــاً فـــي كَمَائِمِـــهِ
واليَاســمِينُ علــى الأَغْصَــان مِيسَــانُ
وللقُرنْفُـــــلِ أثْـــــوابٌ ينوَّعهـــــا
عـــن البلـــور صـــنَاعُ الكَـــف رِقَـــانُ
وللبنَفْســـــجِ أمْســـــاحٌ ممسَّـــــكةٌ
كأنـــــه رَاهِـــــبٌ فـــــي الـــــدَّير
وحبـــــذا زَهْـــــرُ الليمـــــونِ يُسْـــــكرِنُا
مـــنهن جَـــام خَـــلا مـــن مثلِـــه ألحـــانُ
واللَيـــلُ يُحييـــه والأُطيـــارُ هَاجِعـــةٌ
بَلابِـــــل وشَـــــحَارِير وكِـــــرْوانُ
مـــؤَذن الطَيـــر يَـــدْعُو فيـــه محتســـباً
فَيسْـــتَجِيبُ لـــهُ بـــرٌّ وغيَـــانُ
والصـــبحُ فـــي حُلـــلِ الأنْـــوارِ طـــرزه

فـي الشـرقِ والغـربِ أسْـحَارٌ وأصْـلانُ

كأنمـا الأرضُ فـي الفـردوسِ سَـابِحةٌ
يحـدُو خُطاهـا مـن الأمـلاَكِ رَبـانُ
ضـاقَ الفَضـاءُ بمِـا يِحويْـه مـن فـرحٍ
فكـلّ مَـا فـي فَضـاء الله فَرْحَـانُ
إلا المحـبَّ الـذَي لا حُّبـه دَنـس
ولا مَودتُـهُ خِـبٌ وإدّهَـانُ
نَفَـاه عـن غُـرس الـدُّنيا شَـواغِلهُ
إنُ الحِـدادَ عـن الأعْـراسِ شُـغلان

* * *

مَـا للطبيعـةِ تَجْلـو حَفْـلَ زِينَتهَـا
حتـى لكـاثَر منهـا اللَمـحَ ألْـوانُ
كأنَمـا مرنْـت مـن طُـولِ مـا صَـنَعتْ
فلـيس يُخْطِئهـا فـي الصـنع إتقـانُ
رُحْمَـاك يَـارب إنُ النَّـاس قَـدْ غُلبـوا
علـى الوَقـارِ ، وللأهْـواءِ شـيْطانُ
لَقـدْ علمـتَ بأنَـا لا قـرارَ لَنـا
مَـع الَجمِـالِ ، وأنَّ الصـبرَ وهْنـانُ
فَمـا لَنـا كلَمَـا دَارتْ نَواظِرُنَـا
مُـدَّت إلـيهن أوْهَـاقٌ وأشْـطَانُ

مـــن كـــلُ ألأَّقـــهِ بالُحســـن طَلعتـــهُ
مُسْتَملح التَّيـه ، يعْطُـو وهـو خَجْـلانُ
تَنْصَـــاحُ طرَّتـــه عـــن صُـــبحِ غرَّتـــهِ
فَيْفَضَـحُ الصُّـبحَ وجـهٌ منـه ضَـحْيانُ
إذا النَّهـــارُ تجلّـــى مـــن أســـرَّته
صـــحتْ قلـــوبٌ تحييـــه وأجْفـــانُ
تَـرنَّح اللـين فـي عِطْفَيـهِ واتَّسـقَتْ
فيـه الحُلَـي ، فهـو للأبْصَـارِ ميـدانُ
ويســـتهلُ بِـــروضِ مـــن ملاحتـــه
كمـا اسـتهلُ بـروض الزَّهـرِ نْيسَـانُ
بالغصـــن شَـــبهُ مـــن لـــيسَ يعرفـــهُ
وإنَّمـــا هـــو للـــرائينَ بُسْـــتانُ
وهـلْ نَمـاقط فـي غصـن علـى شَـجَر
آسٌ ووردٌ ونســـــرينٌ وسَوْســـــانُ

* * *

يَـا مَـنْ يَرانـي غَرِيْقـاً فـي مَحبتـهِ
وجـداً ، وَيسْـألني هَـلْ أنـتَ غَصَـانُ
واضـــيعةَ الحـــب أبديـــةِ وأكتمـــهُ
ومـن عُنَيْـتُ بـه عَـنْ ذَاكَ غَفْـلاَنُ
لـي فـي مَـدِيْحكَ أشْـعَارٌ أضـنُ بهـا
علـى امـريءٍ فَخْـرهُ عَـرشٌ وايـوانُ

علـى محَّيـاكَ مـن وشْـى الصـبا روَع
وللمُحبـــينَ أحـــداقٌ وأعْيـــانُ

فَفِـــيم تعـــذلُهم إن راحَ نَـــاظِرُهم
بِحُسـنِ وجْهِـك يهـذي وهَـو ولهـانُ

مـا الحُسـن ذنبـاً ، فَمـا للحـب تحسِـبهُ
ذنبـاً مـن النَّـاسِ لا يَمْحُـوه غُفْـرَانُ

همـــا شَـــقيقان فـــارفقْ أنْ تحيلهُمـــا
ضِـــدَّين بِيْنهَمـــا نـــأىٌ وهُجـــرانُ

مـــن علُّـــم النَّـــاس أنَّ الحـــبُ مأثمـــةٌ
حتـى كـأنْ ليسَ غَيـر البُغضِ إحْسَانُ

هَبهـــا جنَايـــةَ جَـــان أنـــت آثِمُهـــا
مَـا كَـانَ يُعصـم لا إنـسٌ ولا جَـانُ

إن الجســـومَ مثنـــاةُ جَوارحُهـــا
إلا القلـوب فَصـيغتْ وهـي أحْـدَانُ

لكـــل قَلـــبٍ قَـــرينٌ يُســـتتمُّ بـــهِ
خَلـق وخُلْـق فهـل يُرضِـيكَ نقْصَـانُ

إنَّ التَعـــاطُف بـــالأرْواح بُغْيتُنـــا
وفـي الوجـوه علـى الأرْواحِ عِنْـوانُ

تمثالُـك الصَّـخر أحْظَـى منـكَ إنْ نَفَـرَتْ
عنَـك العيـونُ ، ولـم يشْـمَلْك وجـدانُ

إنـا لمـن مَعْشـر حـبُّ الجَمـال لهـم

حب لمَا كانَ في الدُّنيا ومَنْ كَانُوا

ليأمن الطير أنا لا تكيد له
ولا نخف مَكْرَنا وحشٌ وعقبانُ
لو تسَمع الوُرْقُ نَجوانا لكانَ لَها
منَّا غصونٌ نَضِيراتُ وأحضَانُ
أو كانَ بِذْرِي حَيِيُّ النَّبت عِفْتَنا
لم تُغض منّه بأيْدِينَا أغَيْصانْ
أو يَنظرُ السَائمُ النَابي طَوْيَتنا
لم تالف القفر آرم وغِزْلانُ
ولا اتقى الحوتُ شرَاً حينَ يُبْصرنَا
إذا وقتهُ شباكَ الإنس قيعانُ
يا ليتَ أنَ لَنا كَهْفاً تَعوذُ بهِ
إنْ رَاحَ يُفْزعهَا بَغيُ وعدوانُ
ما ضرَ قانصها أن لا يكونَ لَها
غيرُ الفَلا وحجازُ الأفقِ قُضْبانُ
أين الحَمائمُ تَشْدُو في أرائِكَها
مِن الحمائِم يشْويهنَ مبْطَانُ
أو الطُيور عَلى السفَودِ نَاضجةً
مِن الطيور تهاداهُنَ أَفنانُ
لو أطْلَقُوهَا كَما شَاءتْ لكانَ لَهم

مِنهـــا قِيـــان كَمـــا شَـــاؤا ونـــدمانُ

* * *

هَـلْ يَعِـرفُ البـيضُ أنّ الحسـنَ جَزهـرةٌ

لهَـا الثَّـراءُ ، ثَـراءُ الـنفَّسِ ، أثْمـانُ

يَقْنـــوُ نفائِسَـــه مـــن لا يســـومّه

وقـــد يَعِـــز علـــى الـــلآل قنيـــان

يـــا جـــوهراً بـــتُ أرعـــاه علـــى أمَـــمٍ

رَعْـىَ الشَـحْيحِ ، ومـالي فيـهِ سُـلْطَانُ

مـا فـي يَـدِي مِنَـه لا عِـين ولا أثـر

ولـــى عَليـــهِ مَغَـــاليْقُ وأعْيَـــانُ

قـد نِلـتُ مـا نِلـتُ مـن حـظٍ بـهِ غَرَضـاً

وقَـدْ تَـولى ، فَحظـى منـه فُقْـدَانُ

إنـي إلـى الرعَـى مـن عيْنَيـك مُفْتَقـرُ

يـا ضـوء قَلبـي ، فـإنَّ القَلـبَ مُـدجَانُ

مَـنْ لـي بِمهـدكَ تَرعَـاني لَواحِظُـةُ

ورب مُسْـتقيظٍ يَرْعَـاهُ نَعْسـانُ

لـــو أسَـــتْطَيعُ لوقَـــاهُ وظَلَلـــةُ

قلـبٌ تَنـام الـدارارِى ، وهـو جَـوْلانُ

أبيْـتُ أُزجـي إليـهِ كـلُ ضـاحِكَةٍ

مـــن الأمـــاني يُـــوحهينَ فتَـــانُ

أزجـــي عـــرائس أحـــلامٍ تَيَممَـــة

فـــي زَبـــرج بالحيـــاءِ الغـــضِّ يـــزْدانُ

تَمضِـــى بـــه بـــين جَنَّـــاتٍ مَزْخَرَفـــةٍ
فـــيهنَّ حُـــورٌ وأمَـــلاكٌ ووِلْـــدَانُ
وسَـــاجعاتٌ ناغيـــه علـــى كَثَـــبٍ
حتَّـــى يُنبهـــه مـــنهنَّ إرْنـــانُ
إذا تنَقـــل أو أسَـــرى فَمَبِهطُـــهُ
مـن خَـالصِ العَسْـجدِ الوَهْـاجِ أفْـدانُ
مســتمريٌ طيـــبَ مجناهَـــا وبَهُجَتِهـــا
قَلـــبٌ غَريـــزٌ ولَحـــظٌ منـــه سَـــكْرانُ
وبـــاتَ للقلـــب فـــي جـــنح الظَّـــلامِ إلـــى
دَبيـــبِ أحْلامـــهِ صَـــغْو وإرغـــانُ
حَســـبي الســـهادُ إذا مَـــا بِـــتُّ أذكـــرهُ
وطرفـــهُ الأكْحـــل الوَسْـــنانُ وسْـــنانُ
إنـــي لأغْـــنُم وصـــلاً فـــي تَمنعِـــهِ
وَعطْفِـــه ، وكـــلا الوَصْـــلينِ مِفْتـــانُ

* * *

مـا ضـرّ مـن نَـالَ فـي حـين سَـعادتَه
إن فاتـــهُ فـــي طَويـــل الـــدَّهر أحْيـــانُ
إذا جنيـــتَ مِـــنَ الأيـــامِ زَهْرتَهـــا
فَـــأُقْنَعْ فَسَـــائِرُهَا شَـــوْكٌ وعبـــدَانُ

ولا وَرَبِـــكَ مَـــا بـــالنَّفسِ مقتنـــعٌ
أكـــانَ نُجـــحٌ لهـــا أمْ كَـــان حرمـــانُ
فـــإن رَوْينـــا ، فـــبعضُ الـــرَّي مَظْمـــأةٌ
وأن ظَمِئنـــاَ ، فَمـــا يرْتَـــاحُ ظمـــآنُ
أيُّ الفَـــريقين أحْمَـــي لهفـــةً ووجـــيً ؟
مـن ذَاقَ أو لَـمْ يَـذقْ ، فالكـلُ لهفـانُ
يـــا ليلـــةً حُطمـــت أنـــوالُ حائِكَهـــا
فـــلا يُحـــاك لَهـــا فـــي الـــدَّهر ثنيـــانُ
العـــيشُ مِـــن قَبلَهـــا شَـــوقٌ نَعمـــتُ بِـــه
والعـــيشُ مـــن بَعْـــدِها ذكـــر وتحنـــانُ
طالـــتْ ولا غـــرو فالجنَّـــاتُ خالـــدةٌ
وفـــي الوِصَـــالِ مـــن الجنَّـــات ألـــوانُ
أصـــــبحتُ واللهِ لا أدْري لبَهْجَتِهـــــا
أليلـــــةٌ سَـــــلَفتْ أَمْ تِلـــــك أزمـــــانُ
وكيـــفَ لا وهـــي شـــطرٌ حـــينَ أحســـبُها
والعمْـــرُ شـــطرٌ ، وفيهـــا عنـــهْ رجَحَـــانُ
لقـــد سَـــقَانا الهـــوى خَمـــراً معتَقـــةً
صَـــبابها قَبْلنَـــا شِـــيبٌ وشـــبَانُ
هيهـــاتَ لا تبلـــغُ الصَّـــهباءُ نشـــوتَها
ولـــو تنـــاولَ منهـــا وراءِ البحـــر نشُـــوَانُ
فـــاضَ الهيـــامُ علـــى قلبـــي فَفَـــاضَ بـــهِ

نبـــغٌ لـــهُ وراءِ الـــدَمع شـــطآنُ

وددتُ والـــدَّمع فـــي عينـــيَّ محتجـــزٌ
لـــو سَـــال منـــه علـــى خـــدىُ غـــدرانُ

أمســـيتُ أرشـــفُ شَـــهداً مـــن مَراشِـــفهِ
والسَلْسَـــــبيلُ بعليـــــين غيْـــــرانُ

والنِّيـــل تَجْـــرى لَـــهُ فـــي كـــل نَاحيـــةٍ
جـــــداولٌ لؤلؤيـــــاتٌ وثغْبـــــانُ

يَقُودنَـــا حيـــثُ شَـــاء المـــوجُ واطـــردَّتْ
أمواهـــهْ ، فكـــأنَ الفُلـــكَ وسْـــنَانُ

حتـــى تصـــرَّم جـــنح اللَّيـــلِ وانْبثقـــتْ
مـــن كـــلّ مطلـــع للصـــبح عمُـــدانُ

فَمَـــا أفقنَـــا وعـــيْنَ الصُّـــبح شَـــارقة
ومـــا هَجَـــدْنَا وغُـــول اللَّيـــلِ ســـهْرانُ

بِنـــا سِـــوى الشَـــمس والشُّـــبهان نَرصُـــدُها
شـــموس أنـــس مُضِـــيئات وشُـــهبانُ

سَـــمِعتُ أعـــذب مـــا يفتـــر عنـــه فـــمُ
مـــن الحـــديث ومـــا ســـاغته آذان

فصـــاحةٌ لَثَمـــتْ رُوحـــي بهـــا شـــفةٌ
لـــو ذَاقَهـــا النَّحـــل لـــمِ يَمـــرأه ريحْـــانُ

أنفـــي لـــرَين النُّهـــي مـــن كـــلّ مـــا نَفَشـــتْ

علـــى الصَـــحَائف أعـــرابُ ويونـــانُ

تهتـــزُّ بـــين طَوايـــا الـــنَّفس نَبْرتُهـــا
كَمـا يَمـوجُ لضَـوءِ الشَّـمس خَيْطَـانُ
ذَرِ الدســـاتينَ تحـــدو وهـــي ضَـــارِبة
مـــن لـــيسَ تحـــدوهُ أشـــواقٌ وأُحَـــزانُ
وأَطـــرب لصـــوت تَعـــالى أن يُحاكيـــهِ
حـــاكِ ، وتُعـــربَ عـــن فَحْـــواه أفَنَـــانُ
مـــا أنشـــدَ النَّـــاسُ إلا كـــي تُـــذكرَهُم
صـــوتَ الحبيـــب أناشـــيدٌ وألحـــانُ
ولا تعَلَّـــم وزنَ القـــولِ شَـــاعرُهم
إلاَ وَكـــانَ لَـــهُ بـــالنَّبضِ ميـــزَانُ
يـــا أملـــحَ النَّـــاسِ هـــلاَ كنـــتَ أكبـــرهُم
روحـــاً ، فَيتفِقَـــا رَوحّ وجثمـــانُ
صـــدَّقتَ بَاطِـــلَ مـــا قـــالوا كـــأنهمو
لا يكـــذبونَ ، أو أن العـــذْلَ قـــرآنُ
أمـــا عَلمـــتَ بـــأنَ النَّـــاس ألســـنةٌ
ســـودٌ لهَـــا غيـــر مـــا تُبْدِيـــهِ إبطْـــانُ
أحـــرى مـــزاعِمهم بالشَّـــك أســـيرُها
فـــالحقُ متئـــد والإفـــكُ عَجْـــلانُ
وربَّ قولـــــة زورٍ قَالهـــــا رجـــــلٌ

مـنهم فَطـافَ بهـا فـي الأرضِ ركيـان

تَـــداولوهَا فراحـــتْ فـــي مَـــذاهبِهِم
شـــريعةُ نَقْضُـــهَا كُفـــرّ وعِصـــيْانُ
مـــا كثـــرةُ المثبتـــينَ الأمـــرَ تُثبتـــهُ
ولا بِقلـــــتِهم للحـــــقِّ إيهـــــانُ
فـــإنْ ألـــفَ ضـــريرٍ لـــيس يَعـــدِلُهم
بالمبْصِـر الفَـردِ يـومَ الشّـك ميـزانُ
فاضـــربْ بنعلـــكَ دعـــواهُم فكلهمـــو
خُوَّاض لَيلٍ ، وهم في الصُّبح عميانُ
يـا واهـبَ اللَيـلِ بَـدْراً هَـبْ لمشـبهِهِ
بَـدْراً يضـــيءُ لَـــهُ والقلـــبُ غَيْمـــانُ
أنـا الغريـبُ ولـى بـينَ الـوَرى رَحِـمٌ
بـــالرَّغمِ منـــي ، وأصْـــحَابٌ وجِيـــرْانُ
وابعـثْ لَنَـا الحـورَ فالإنسـانُ لـيس لنَـا
بخـــالصٍ منـــهُ أحبـــابٌ وأخْـــذَانُ
أو الكواكـــبَ سِـــراباً بَيْنَنـــا غـــزلاً
إنَّ الفَضـــاءَ بِـــذَاكَ الســـرب مـــلآنُ

أولاً : لمحات من حياة العقاد

إنه من الضروري عند دراسة أي نص أدبي ، التعرف إلى صاحبه ، والوقوف على أهم ملامح حياته ، ومظاهر بيئته ؛ حتى يمكن التعرف إلى ظروف النص وملابساته ، وإمكانية نقده نقداً صحيحاً .

و" العقاد " قد أقرّ هذا المبدأ أو هذه الحقيقة ، إذ رأى أن معرفة البيئة ضرورية في نقد الشعر في أي أمة وفي كل جيل [1] .

ومن ثم فإننا عند دراسة نونية " العقاد " أو " الحب الأول " يكون من الضروري التعرف - دون استقصاء - إلى أهم ملامح شخصية " العقاد " كي تكون الدارسة مكتملة الجوانب على الرغم من أن حياة " العقاد " وسيرته مسطورة في كتب كثيرة ، لكن الدراسة تقتضي الوقوف على أهم هذه الملامح في إجمال يغني عن التفصيل .

ففي وقت رزئت مصر بكارثة الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢م، وتعددت سوءات هذا المحتل وتعاقبت أرزؤه وخطوبه على الشعب المصري- وتدخل بريطانيا في كل أمور مصر وإخضاعها لنفوذها وسلطانها، وإلغائها للدستور ومجلس الشيوخ وتجريدها من كل سلطان، وتجريد الشعب من جيشه الوطني في ظل هذه الظروف ويُعيد هذا الاحتلال وتلك النكبات ولد الشاعر" عباس محمود العقاد "وبالتحديد في ٢٨ من يونية سنة١٨٩٨ بمدينة أسوان التي تزخر بمعالم الحضارة المصرية القديمة،والتي أسهمت في تكوين وتشكيل شخصية "العقاد" وصفاته وطباعه [2].

١- انظر شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي - عباس محمود العقاد ص٣ - نهضة مصر - الفجالة ١٩٦٣ .

٢- انظر مولده ونشأته في هذه الكتب : إبداع الشبان وإبداع الشيوخ في دنيا الأدب ، والمقالة في أدب العقاد . ومع العقاد ، والمفكرون والسياسة في مصر المعاصره ، وأدباء في صور صحفية . وشاعرية العقاد في ميزان النقد ، وجماليات القصيدة المعاصرة ، ومجلة الهلال عدد أبريل ١٩٧٦ والعقاد الرجل والقلم . إلى غير ذلك من الكتب .

وفي هذه المدينة حصل العقاد على الشهادة الابتدائية ، التي لم يتجاوزها في تعليمه الرسمي ، وأصبح أستاذاً لنفسه في مراحل حياته المختلفة ، فاستطاع أن يتقن اللغة العربية إتقانا ساعده على قراءة عيون التراث العربي الأدبي والديني واللغوي ثم تمكن من اللغة الإنجليزية التي كان يتلقى بها دروسه في المدرسة [1] الأمر الذي أتاح له - فيما بعد - قراءة أصول الثقافات الغربية والنظريات الأدبية والفلسفية وساعده ذلك في الاطلاع على أعمال بعض الكتاب والشعراء العالميين أمثال " كارليل " و " هازلت " و " لي هنت " و " أرنولد " هذا بالإضافة على عمله بالصحافة ومشاركته في الحياة السياسية والأدبية - بعد انتقاله إلى القاهرة - وقد غلبت عليه في كل ذلك النزعة النقدية .

كما أنه كان في بواكير الأدبية ينظم الشعر الوصفي والعاطفي ، ولم يتجه في شعره إلى المدح وتملق أصحاب السلطان ، بل غلبت عليه النزعة العاطفية وبخاصة في الجزء الأول والثاني من شعره تقريباً - ولا أدل على ذلك من تلك القصائد ، لسان الجمال ، ومناجاة ، ومتى ، وليلة الوداع ، وخواطر الأرق ، والحب الأول التي هي موضوع الدارسة [2] .

وقد عمد هو وزميلاه " شكري " و " المازني " إلى نزعة تجديدية في القيم والمعاني الشعرية بعيداً عن المحاكاة والتقليد .

وهذه النزعة لم تكن فردية بحيث تبرز في الحياة ثم تتلاشى لكنها كانت طليعة جيل جديد غير " شوقي " و " حافظ " و " مطران " ، وقد ساعد هذا الجيل أنه كان متسلحاً بالثقافة العربية الواسعة ، بالإضافة إلى بعض الثقافات

١- حياة قلم العقاد ص ٦٢ ، كتاب الهلال ١٩٦٢ .
٢- انظر العقاد والتجديد في الشعر ، العوضي الوكيل ص ٨٠ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧١.

الأجنبية . وقد أطلق على هذا الجيل " جماعة الديوان " نسبة إلى هذا الكتاب النقدي الذي أصدره " العقاد " و" المازني " عام ١٩٢١ ، وأودعوه خلاصة فكرهم ونقدهم للتيار المحافظ وشعرائه أمثال " شوقي " و " حافظ " و" عبد المطلب " وغيرهم ، وإن لم يخل الكتاب (الديوان) من بعض التحامل على " شوقي " وبخاصة من جانب " العقاد " لكننا نستطيع القول بأنهم قادوا حركة التجديد وأثّروا تأثيراً مباشراً أو غير مباشر فيمن أتى عدهم من الشعراء أو عاصرهم [١] وأسهموا في توجيه الشعر العربي الحديث الوجهة الوجدانية التي لا تزال تلازمه حتى اليوم على الرغم من تطور الوجدان من الفردية إلى الجماعية [٢]

وإذا ما جاوزنا هذه الجماعة إلى قطب من أقطابها وهو " العقاد " والتعرف إلى مفهومه للشعر نرى أولاً أن شعره صورة لحياته بكل ما اتسعت له هذه الحياة من ألوان المشاعر وضروب الأحاسيس ، وهذه هي النقطة التي قامت عليها فلسفات " العقاد " ودراساته الطويلة في تحديد نظرته للشعر .

فالشعر عنده صورة من التعبير عن الحياة الإنسانية من خلال الذات وبوحي من الإحساس الصادق ، كما أنه امتزاج مستمر بين عالم النفس وعالم الحس ، وتلك هي الصورة التي تلتقي فيها حقيقة الإنسان إنساناً وحقيقته شاعراً، كما يرى أن الشعر هو المحك الذي يلتقي فيه الفكر بالوجدان ، فلا يمكن أن يكتمل عمل شعري جيد دون أن تجتمع فيه عناصر الفكر وخلجات الأحاسيس والوجدان .

١- أنظر جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث د. عبد العزيز الدسوقي صـ١٦٨ ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١م.

٢- أنظر فن الشعر د. محمد مندور صـ١٤٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥

كما أنه يرى أن الشاعر هو ذلك الذي أتخذ من حياته موضوعاً لشعره، يعبر فيه عن ذاته وخصائص شخصيته تعبيراً يفصح عنها من حيث صلتها بموضوعات الحياة ومعانيها ، وهذا يعني أن كل شيء في هذه الحياة يصلح أن يكون موضوعاً أو مجالاً للشعر مهما كان معروفاً أو منكوراً ، مادام يضفي على الحياة والأشياء معانيها الحقيقية .

لذا يرى " العقاد " أنه لولا الشعر لما أشرقت على الحياة صورة من صور الحسن ولظلت على جمالها وفتنتها خرساء جامدة ما لم يصورها الشعر ، وعن هذه النظرية يقول العقاد [1] :

والشّعرُ ألسنةٌ تُفضِي الحياة بهَا
إلى الحياةِ بما يَطْوِيه كَتمانُ
لولا القرَيض لكانتْ وهي فَاتنة
خَرسَاء ليسَ لَها بالقولِ تِبيَانُ
ما دَام في الكونِ رُكنٌ للحياةِ يُرى
فَفِي صَحَائِفِهِ للشَّعرِ دِيوَانُ

وهذا معناه أن الشعر يحول ما في النفس إلى أناشيد فياضة بالأحاسيس والمشاعر ، يعبر فيها الشاعر عن الحياة وما فيها من مكنونات وبواعث ، وهذا ما أكده " العقاد " في مقدمة الجزء الأول لديوانه إذ يقول [2] :" الشعر يعمق الحياة فيجعل الساعة من العمر ساعات ، عش ساعة مفتوح النفس لمؤثرات الكون التي يعرض عنها سواك ، ممتزجة طويتك بطويته الكبيرة تكن قد عشت ما في وسع الإنسان أن يعيش ، وملأت حقيبتك من أجود صنف من الوقت " .

١- ديوان العقاد . المجلد الأول صـ ٧٣ منشورات المكتبة العصرية - بيروت - لبنان .
٢- مقدمة الجزء الأول من الديوان .

ومن ثم فقد تناول " العقاد " في شعره كل الأغراض ومظاهر الحياة ، فتناول الطبيعة بكل ما فيها من عناصر الجمال والفتنة وكل ما يحرك خوالج قلبه ويثير أحاسيسه ، كما تحدث عن الحب والغزل الذي اهتم فيه بوصف الروح والشمائل بعيداً عن الوصف المادي الذي أعده تعبيراً عن الغريزة الحيوانية الذي ينبغي أن يرتفع عنه الشاعر حين يصف علاقته بالمرأة . وفي القصيدة التي بين أيدينا تجسد هذا المعنى ، ويظهر من خلالها أن " العقاد " يوحد في غزله بين متعة الحس ومتعة النفس مما يدل على صدقه الشعوري ويظهر خصائص نفسه ، وخصائص من يحبه بحيث يتألف من ذلك كله غزل نضج فريد يعجب بالجمال ويتجاوزه إلى الإعجاب باغترار الصبا والإدلال على الأيام إدلال ظافر .

كما أنه من خلال غزله يصلنا بالطبيعة وأبنائها صلة الود والرحمة والتعاطف حيث يقوم له جميع أبنائها بوظيفة الرسول الأمين بينه وبين حبيبه، وحيث يتسق الجميع في لحن واحد جميل ، بحيث ينقلنا من خلال تعبيره إلى عالمه لنشاركه مشاعره في الإحساس الكلي بصلتنا بالحياة قوية دفاقة تسري في شعورنا [1].

كما أنه استخدم الطبيعة استخداماً رائعاً حينما تغزل كما سنرى في قصيدة " الحب الأول ".

الجدير بالذكر أن حياة " العقاد "مليئة بالملامح المتعددة ، لكننا اقتصرنا على أهم الملامح التي تبرز منهجه الفني واتجاهه الشعري ونهجه في غزله وهذا ما يعنينا في هذه الدراسة .

١- أنظر شاعريه العقاد في ميزان النقد الحديث .د. عبد الحي دياب صـ ١٢٦.

ثانياً : دراسة النونية (الحب الأول)

يقول العقاد :

يُهْنِيــكَ يــا زهــر أطيــارٌ وأَفْنَــان
الطَّيــر يَنْشُــد والأَفْنَــانُ عِيــدانُ[1]

طُوبــاكَ لســتَ بإنســان فَتشــبهني
إنــي ظَمِئــتُ وأنــتَ اليــومَ ريَــان[2]

هــذا الربيــعُ تجلّــى فــي مَواكبــهِ
وهَكــذا الــدَهر آن بَعْــدَها آنُ

تفتحــتْ عنــه أكمــامُ الســماء رضَــى
وزفــهُ مــن نَعــيم الخُلْــدِ رضــوانُ [3]

وشَــائِعُ النَّــورِ فــي البُســتان باســمةٌ
والأرضُ حَاليــةٌ ، والمــاءُ جَــذْلانُ[4]

الشــمسُ تَضْــحَكُ والآفــاقُ صَــافيةٌ
جَلْــواء والــرَّوضُ بالأَثْمــارِ فَيْنَــانُ[5]

١- أطيار : جمع طائر - أفنان الأولى : أنواع ، والأفنان : الأغصان . عيدان : جمع عود وهو ما جرى فيه الماء من الشجر وتجمع على عيدان وأعواد .

٢- طوباك : طوبى فُعلى من الطِّيب ؛ كان أصله طُيبي ، فقلبوا الياء واواً للضمة قبلها ، ويقال طوبى لك وطوباك بالإضافة لكن العرب لا تقول طوباك على رأي أكثر النحويين إذ إن الصواب أن نقول طوبى لك إن فعلت كذا وكذا، ومنه قول الله تعالى : ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ أي حسنى لهم ويقال أن طوبى شجرة في الجنة - ريان: ضد العطش ، ونبت ريان أي تروى وتنعم .

٣- زف : الزفيف سرعة المشي مع تقارب خطو وسكون ، وزفت الريح زفيفاً وزقزقت هبت هبوباً ليناً ودامت . والمعنى أن الزهر قد تفتح وأصبح في صورة جميلة رائعة يتمايل مع الريح الذي مبعثه الجنة .

٤- وشائع النور : وشائع الثوب طرائق نسجه ويعني طرائق نسج الورد في البستان توحي بالفرح والسرور : الأرض حالية : حليت أي صارت ذات حلي . وتحلت : ليست حلياً ويقال للشجرة إذا أورقت وأثمرت حالية - جذلان : الجذل بالفتح الفرح . وجذل بالكسر ، بالشيء يجذل جذلاً ، فهو جذل وجذلان : فرح والجمع جذلى والأنثى جذلانه ، والمعنى أن الماء يترقرق فرحاً وسروراً .

٥- جلواء : يقال جهة جلواء : واسعة .والسماء جلواء أي مُضحية . وليلة جلواء أي مضحية مضيئة - فينان : مثمر .

وللنَّســـيم خُفـــوقٌ فـــي جَوانِبـــهِ

وللطُّيـــورِ تـــرانيمٌ وألحـــانُ [1]

فـــي كـــل رَوْضٍ قـــرى للزَّهِـــر يَعْمُرهَـــا

يـــا حَبّـــذا هـــي أبيـــاتٌ وسُـــكانُ

مُسْتَأنسَـــاتٌ سَـــرى مـــا بَيْنهـــا عَبـــق

كَمـــاَ تَراسَـــلَ بالأشْـــوَاقِ حِبَـــان [2]

الـــوَردُ يحمـــرَ عُجْبـــاً فـــي كَمائِمِـــهِ

واليَاسـمِينُ علـى الأَغْصَـانِ مِيْسَـانُ [3]

يستهل " العقاد" معارضته (الحب الأول) بوصف الطبيعة وصفاً ينم عن مقدرة فائقة في الإحساس بما يحيط حوله من مظاهر الجمال والسحر.

فقد فض عنها عقالها الحسي الظاهر، وأحاطها بهالات من خواطر، وأخيلته السامقة، وسوانحه النفسية، التي تنظر بعمق إلى الكون والوجود، والتغني بالطبيعة والحب، وتصوير أشواق الهوى، ونبض قلبه مع نبضات الطبيعة وخفقات أحاسيسه نحو عناصر الطبيعة والكون، والامتزاج مع الروح المستكنة للوجود.

١- خفوق : خفق : اضطراب ، وقيل خفق الرجل برأسه من النعاس : آماله ، وقيل إذا نعس نعسة ثم تنبه ، وخفق النجم: إذا تلألأ وأضاء ، وريح خفيفة سريعة . والمعنى : أن النسيم يضرب جنبات الروض فيختال فرحاً وسروراً - ترانيم : الرنيم والترنيم : تطريب الصوت ، والترنم : التطريب والتغني وتحسين الصوت ، ويطلق على الحيوان والحمام .

٢- عبق : عَبقَ : بقى ولازم ، وعبقت الرائحة أو الطيب في الشيء تعلق به فلا يذهب عنه - حِبان : الحب بالكسر : المحبوب والأنثى حبة وجمع الحب أحباب وحِبَان وحبُوب .

٣- كمائم : من الفعل كمم أي ستر يقال كمم الشيء ستره ، والكم برعوم الثمرة أو غلاف الثمرة وهو ما يسترها ، والجمع كمائم وأكمام - ميسان : نائم ، وقيل الوسن أول النوم ، يقال ومن فلان إذا أخذته سنة النعاس ، وميسان تطلق على الرجل والمرآة .

فقد بدأ برسم صورة رائعة مكتملة الجوانب متناسقة الألوان ، كأنها صورة حية ناطقة مغنية تفوح بالرائحة الطيبة ، فقد ساعده إحساسه الرهيف في تصوير الطبيعة وقد ازدهرت بالأزهار والأطيار ، وتجلي الربيع في أزهى صورة بعد أن أقفرت الحياة من مظاهر الخلابة ، بالإضافة إلى الأثمار وقد أينعت ، وسرت الرياح المحملة بعطور الأزهار والورود ، فأصبحت الأرض وكأنها بستان متناسق الألوان والظلال يترقرق الماء بين جنباته .

ويأبى الشاعر إلا أن يضيء لنا هذا المنظر البديع بالشمس ذات النور والضياء الساطع في الأجواء الصافية ، ويطل على الأرض وقد امتلأت بالبساتين المحملة بالأثمار التي تتلألأ في هذا الضوء كالذهب .

ويكمل الشاعر الصورة بإحساسه المرهف بامتزاجه بالطبيعة ، فيرى النسيم وقد سري بعبق الأزهار وترنيمات الطيور التي تشدو بأصواتها أعذب الألحان وهي تتمايل مع الأغصان .

ويتجاوب الشاعر مع أصداء نفسه الحالمة ، فيرى الأرض وكأنها قرية عمرت بالزهور المتعددة الأنواع والألوان التي يفوح شذاها طيباً ومسكاً وهذه المناظر الخلابة وتلك اللوحة الرائعة حركت في نفس الشاعر كثيراً من الأحاسيس الحية النابضة والتي أذاعها في بقية القصيدة كما سنرى:

وللقُرنفُلِ أثْوابٌ ينَّوعها
عن البلور صنّاعُ الكَف رِقَانُ[1]
وللبنفسج أمْسَاحٌ ممسَّكةٌ
كأنه رَاهِبٌ في الدَّير محزْان[2]

١- رقان : مزركش بكسر الكاف

٢- أمساح :المسح : الكساء من الشعر والجمع أمساح - محزان يقال رجل حزنان ومحزان : شديد الحزن ، وحزنه الأمر يحزنه حزناً وأحزانه ، فهو محزون .

وحبـــذا زَهْـــرُ الليمـــونِ يُسْـــكِرنا
مـنهن جَـام خَـلا مـن مِثلِـه ألحـانُ[1]
واللّيـــلُ يُحييـــه والأطيـــار هَاجِعـــةٌ
بَلابِـــل وشَـــحَارِير وكِـــروانُ [2]
مـــؤَذن الطَيـــر يَـــدْعُو فيـــه محتســـباً
فَيسْـــتَجيبُ لَـــهُ بـــرٌّ وغيـــانُ
والصـــبحُ فـــي حُلـــلِ الأنْـــوارِ طـــرَّزه
فـي الشـرقِ والغـربِ أسْـحارٌ وأصْـلانُ[3]
كأنمـــا الأرضُ فـــي الفـــردوسِ سَـــابِحةٌ
يَحـدُو خُطَاهـا مـن الأمْـلاَكِ رَبـانُ[4]
ضَـــاقَ الفَضـــاءُ بَمِـــا يحويْـــهِ فَـــرحِ
فكـــلَ مـــا فـــي فَضـــاءِ الله فَرْحَـــانُ

إلا المحـــب الـــذي لا حبـــه دنـــس
ولا مودتـــــه خـــــب وإدهـــــان [5]
نفـــاه عـــن عـــرس الـــدنيا شـــواغله
إن الحـداد عـن الأعـراس شـغلان[6]

١- ألجام : إناء للشراب والطعام من فضة ونحوها وقد غلب استعماله في قدح الشرب والجمع جامات وأجوام .
٢- البلبل طائر حسن الصوت يألف الحرم ويدعوه أهل الحجاز النفر كِروان : جمع كروان ، وهو طائر صغير لا ينام بالليل - الشحارير جمع شحرور طائر أسود فريق العصفور.
٣- أصلان : جميع أصيل : وهو الوقت بعد العصر إلى المغرب - أسحار جمع السحر : وهو آخر الليل قبيل الصبح ، وقيل : هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر .
٤- حدا يحدو حدوا وحداء ، زجر الأبل خلفها وساقها ، وتحادت هي : حدا بعضها بعضاً ، والحدو سوق الإبل والغناء لها - ربان : الربان بفتح الراء وضمها : الجماعة .
٥- الخب الخداع والخبث والغش والفعل خب - إدهان : الادهان والمداهنة : المصادفة واللين وقيل المداهنة إظهار خلاف ما يضمر والإدهان الغش والملق والنفاق .
٦- الحداد : ثياب المآتم الأسود ، والحاد والمحد من النساء التي تترك الزينة والطيب بعد زوجها .

وبعد أن وصف الشاعر بحسه المرهف وذوقه الرفيع جانباً من الطبيعة بما فيه من مظاهر الجمال من أزهار وأطيار وأشجار ذات أفنان وعيدان وشمس مضيئة وآفاق صافية ، وطيور تشدو بأعذب الألحان والترنيم . بعد هذه الصورة الرائعة المتناسقة ، أخذ الشاعر في وصف الزهور والورود بأنواعها وألوانها ورائحتها ، مما يدل على رقة مشاعره ودقة ملاحظته ورفاهة إحساسه وحبه للجمال وللطبيعة ، فالقرنفل قد اكتسى من الحلل أنواعاً مزركشة الألوان ، والبنفسج قد لبس أثواباً تفوح مسكاً وعطراً ، وهو في لونه الهادي يشبه راهباً انقطع للعبادة في تبتل وخشوع ، وزهر الليمون الذي يخلب الأنظار ويسكرها .

وإذا كان النهار قد جمع هذه المظاهر الخلابة والفواحة بالطيب ، فالشاعر لا ينسى الليل بما فيه من مظاهر جمالية ، فالبلابل والشحاريز والكروان تغرد بأصواتها العذبة في جنبات الليل ، وقد هجعت الأطيار الأخرى إلى النوم والراحة ، وفي الصباح تغدو الطيور من وكناتها تسبح في الفضاء فرحة مسرورة ثم يعود الشاعر إلى النهار والنور الذي كان يعشقه ويقول فيه [1] :

" أحبه صافياً وأحبه مزيجاً ، وأحبه مجتمعاً وأحبه موزعاً وأحبه مخزوناً كما يخزن في الجواهر ، احبه مباحاً كما يباح على الأزهر . وأحبه في العيون ، وأحبه من العيون ، وأحبه إلى العيون .. وألحق أنه لا فضاء حيث يكون النور وكيف يكون فضاء ما يملأ العينين ، ويملأ الروح ، ويصل الأرض بالسماء ".

وهذا يعطينا إشارة إلى أن العقاد كان شفافا يحب النور حتى أصبح ظاهرة في تراثه . وهذا ما نلحظه في قوله :

١- في بيتي - العقاد صـ ٥ .

والصـــبحُ فـــي حُلـــلِ الأنْـــوارِ طـــرَّزه

فـي الشـرقِ والغـربِ أسْـحارٌ وأصْـلانُ

فالنهـار قـد تشـكل بهـذين الـوقتين وقـت السـحر الـذي هـو بدايـة النهـار ووقـت الأصـيل الـذي يعطـي لونـاً ذهبيـاً ، والأرض قـد ازينـت بهـذه الألـوان وتلـك الحلـل فكأنهـا سـابحة في الفـردوس تسـوقها جماعـة مـن الملائكـة في موكـب مهيـب يـوحي بـالفرح والسـرور للكـون كلـه إلا ذلـك المحـب الـذي أخلـص في حبـه ، ولم يدنسـه بخـداع أو مكـر أو نفـاق ، فلـم يعدْلَـه مكـان في عـرس الـدنيا ، إذ إنـه انصـرف عنهـا بشـواغله وحبـه ، فلـم يعـد همـه تلـك المنـاظر وهـذه المبـاهج بقـدر مـا يهـيم بحبـه وتباريحـه . وهـذه إشـارة إلى مـا في نفـس الشـاعر مـن حـب وهـوى شـغله عـن مظـاهر الجمـال في الطبيعة، ولم يعدله بها اهتمام فهو في شغل شاغل بهذا الحب .

وبهـذا نـرى الشـاعر وقـد اتسـعت مـادة شـعره في هـذه الأبيـات ، إذ اسـتوعبت الحيـاة بكـل مـا فيهـا مـن منـاظر طبيعيـة تخلـب الأنظـار وتبـتهج لهـا الأسـارير ممـا يـدل علـى نسـيج نفسـي مـوزون تجـاه الطبيعـة بمـا فيهـا ، والـتي حركـت لديـه تلـك المشـاعر، وقـد شـرح الشـاعر مـدى ارتباطـه بالطبيعـة وغيرهـا مـن مظـاهر الكـون فيقـول [1] : " فليسـت الريـاض وحـدها ولا البحـار ولا الكواكـب هـي موضـوعات الشـعر الصـالحة لتنبيـه القريحـة واستجاشـة الخيـال .. كـل مـا نخلـع عليـه مـن إحساسـنا ونفـيض عليـه مـن خيالنـا ونتخللـه بوعينـا ونبـث فيـه هواجسـنا وأحلامنـا ومخاوفنـا هـو شـعر وموضـوع للشـعر لأنـه حيـاة موضـوع للحيـاة . وإن التصـور لهـو خـير معـوان للإحسـاس وشاحذ للرغبة أو للنفور".

١- مقدمة ديوان عابر سبيل صـ ٥٤٨ ،منشورات المكتبة العصرية .

ومن هذا المنطلق مضى " العقاد " يلتقط من مرئيات الحياة وبخاصة الطبيعة ومشاهدها ما يحيله صوراً رائعة التشكيل والتنسيق.

مَا للطبيعةِ تَجْلو حَفْلَ زِينَتهَا
حتى لكاثر منها اللَمحَ ألْوانُ
كأنما مرنْت من طُولِ ما صَنَعتْ
فليس يُخْطِئها في الصنع إتْقَانُ
رُحْمَاك يَارب إنَ النَّاس قَدْ غُلبوا
على الوَقارِ ، وللأهْواءِ شَيْطانُ
لَقدْ علمتَ بأنا لا قَرارَ لَنا
مَع الجمِالِ ، وأن الصبرَ وهْنَانُ[1]
فَما لَنا كلما دَارتْ نواظِرُنَا
مُدَّت إليهن أوْهَاقٌ وأشْطَانُ [2]
من كل ألاْقهِ بالحُسن طَلعتهُ
مُسْتمْلح التَّيه ، يعْطُو وهو خَجْلانُ[3]
تَنْصاحُ طرته عن صُبحِ غرتهِ
فَيْفَضَحُ الصُّبحَ وجهٌ منه ضَحْيانُ[4]

١- وهنان : الوهن الضعف في العمل والأمر ، ويقال رجل واهن وامرأة وهنانة.
٢- أوهاق : الوهق الحبل تشد به الإبل والخيل لئلا تند - أشطان - الشطنُ : الحبل الطويل الشديد الفتل يستقي به وتشد به الخيل .
٣- ألاقة : متألفة ، والألق والألاق الأولق : الجنون ، وألق البرق يألق ألقاً وتألق وانتلق يأتلق انتلاقاً : لمع وأضاء وبرق ألاق : لا مطر فيه . والمعنى على ذلك إما أن يكون من مجنونة بالحب أو من كل براقة بالحب أو مضيئة والثاني أرجح - يعطو : يتطاول إلى الشيء ليتناوله ، والمعنى هنا : يمد جيده كي يراه المحبوب - طلعته : رؤيته ، يقال حيا الله طلعتك ، وطلعة الرجل شخصه وما طلع منه - التيه : الصنف والكبر ، وقد تاه يته تيهاً : تكبر ويريد هنا الاعتزاز بالنفس والتدلل بالجمال.
٤- تنصاح : انصاح : استتار وانصاح الفجر انصياحاً إذا استنار وأضاء واتجلى - طر : الطراة الهيئة الحسنة والجمال.

إذا النَّهـــارُ تجلـــىَ مـــن أســـرَّته
صـــحتْ قلـــوبٌ تحييـــه وأجْفَـــانُ[1]
تـــرنَّح اللـــين فـــي عِطْفَيـــهِ واتَّســـقَتْ
فيـه الحُلَـي ، فهـو للأبْصَـارَ ميـدانُ[2]
ويســـتهلْ بـــرِوضِ مـــن مُلاَحتِـــهِ
كمـا اسـتهلَّ بـروض الزَّهـرِ نَيْسَـانُ
بالغصـــن شَـــبهُ مـــن لـــيسَ يعرفـــهُ
وإنَّمـــا هـــو للـــرائينَ بُسْـــتانُ
وهـلْ نَمـاقَط فـي غصـن علـى شـجَر
آس ووردٌ ونســـــرينٌ وسَوْســـــانُ[3]

بعـد أن وصـف الشـاعر بعـض ملامـح الجمـال في الطبيعـة في صـورة مفصـلة ، اعتمـد فيهـا علـى الألـوان المتناسـقة بـين الزهـور والـورود ، والتنـاغم بـن الأطيـار ، ووصـف الليـل بمـا فـه مـن مظـاهر الحيـاة والنهـار بـأنواره ، فكأنـه أحـس بعـد ذلـك أنـه لـن يسـتطيع حصـر كـل مـا في الطبيعـة مـن مظـاهر جماليـة أخـذ يصـفها وصـفاً مجمـلاً متسـائلاً مـا الـذي دعـا الطبيعـة إلى إظهـار هـذا الجمـال وتلـك الزينـة والـتي أصـبحت في حكـم العـادة الثابتـة الـتي لا تخطـي مكانهـا ، لكـن الشـاعر بعـد ذلـك التسـاؤل يـدرك أن وراء هـذه الزينـة المغريـة وهـذا الجمـال الصـارخ صـانع مـتقن هـو الله سـبحانه وتعـالى ، الـذي أعطـى كـل شـيء خلقـه ثـم هـدى ، فـلا يملـك الإنسـان تجـاه هـذا الصـنع

١- أسرته : الأسر : القوة والحبس - والمعنى أنه كما تصحو العيون لمطلع النهار كذلك تنتبه القلوب لمطلع وجهه.
٢- ترنح : تمايل من السكر وغيره والمعنى هنا اهتز ومال - عطفيه : العطف : المنكب عطفيه شقاه من لدن رأسه إلى وركه والجمع أعطاف .
٣- السوسن : نبت أعجمي معرب ، وهو معروف وأجناسه كثيرة . وأطيبه الأبيض . آس : الآسية البناء المحكم .

البديع المحكم الذي يلف جنبات الكون كله ، ويشد الأنظار ويحرك المشاعر والأحاسيس إلا أن يرجع الأمر لله خالق الكون ومبدعه ، ذلك لأن بعض النفوس ليست لديها قدرة على الصبر تجاه الجمال فيكون إغراءً وفتنة لها ، ولم لا وكل ما تقع عليه الأنظار يوحي بالجمال ويأسر اللب ويثير المشاعر .

ولعل الشاعر يقصد بالصنعة المحكمة هنا محبوبته تلك التي أجتمعت فيها كل مظاهر الجمال والبهاء حتى لكأنها أصبحت الطبيعة نفسها بكل ما فيها من مظاهر الفتنة والإغراء ولفت الأنظار وتحريك المشاعر والأحاسيس وهذا ما نلمحه في قوله :

فَمـــا لَنـــا كلمـــا دَارتْ نواظِرُنَـــا

مُـــدَّت إلـــيهن أعْنَـــاقٌ وأشْـــطَانُ

مـــن كـــل ألأقـــهٍ بالحُســـن طَلعتـــهُ

مُسْتمْلح التَّيه ، يعْطُو وهو خَجْلانُ

فمحبوبته هذه تلمع وتتلألأ جمالاً وحسناً يبهر العيون ويسكرها ، ومن دلائل هذا الجمال أدبها وحياؤها ؛ فهي تمد جيدها في حياء وخجل لتنظر إليه ، كما أنها تتمتع بطلعة نورانية ووجه منير تصحوله القلوب وتتحرك المشاعر والأحاسيس كما تصحو العيون لمطلع النهار .

وبجانب ذلك فإنها تتمتع بقوام وقدٍ يختال ليناً ورقة كالغصن تهفو به الريح بمنة ويسرة من طراوته ولينه .

كما يزيد من جمالها وبهائها تلك الحلى التي اتسقت عليها ، فصارت محطاً للأنظار وميداناً يجتمع حوله محبو الجمال والبهاء .

ويتجاوب الشاعر مع نفسه الحالمة المحبة للجمال الطبيعي الذي لا تكلف فيه ولا تصنع ، فيراها وقد جملت في عينيه ، حتى صارت بستاناً يتألق بالأزهار النضرة ، والورود المعطرة والثمار المتنوعة والمناظر الخلابة التي تلفت الأنظار وتهفو إليها القلوب ، وليس غصناً كما يراه غيره.

ونلحظ من هذا كله أن الشاعر قد جمع لمحبوبته جمال الروح بحيائها وأدبها ، وجمال المظهر بوجهها الصبوح وقدها الجميل الرائع .

ولعل السر في لجوء الشاعر إلى الطبيعة يصف بها محبوبته أن الطبيعة مجبولة على هذا الجمال الرباني الذي لا تكلف فيه ولا تصنع ، والشاعر ولع بهذا الجمال الطبيعي ؛ لذا فقد خلع على محبوته من هذا الجمال بل إنه أختار أجمل ما في الطبيعة وهو البستان بنضرته وخضرته وثماره وحيويته ، ليجتمع لها صفات الحسن والكمال والحيوية والرشاقة .

هذا بالإضافة إلى أن " العقاد " كان يعتبر جمال المرأة أسمى مراتب الجمال ؛ لذا فقد استلهم من الطبيعة أجمل ما فيها وخلعها على محبوبته ، وقد جاءت كل هذه المعاني في أسلوب قوي رصين .

يَا مَنْ يراني غَرِيْقاً في مَحبتهِ
وجداً ، وَيسْألني هَلْ أنتَ غَصّانُ[1]
واضيعةَ الحبَّ أبْدِيهِ وأكتمهُ
ومن عُنَيْتُ بهِ عَنْ ذَاكَ غَفْلاَنُ
لي في مَدِيْحكَ أشْعَارٌ أضنُ بها
على امريءِ فَخرهُ عَرشٌ وإيوانُ[2]

١- الوجد : شدة الحب ، غصان : الغصص بالماء إذا شرقت به أو وقف في الحلق ولم يكد يساغ ، ورجل غصان : غاص .
٢- أضن بها : أبخل بها .

علــى محَّيــاكَ مــن وشْــى الصــبا روَع
وللمُحبـــينَ أحـــداقٌ وأعْيـــانُ [1]

فَفـــيمَ تعـــذلُهم إن رَاحَ نَـــاظِرُهم
بِحُسـنِ وجْهِـكَ يهـذي وهَـو ولَهْـانُ[2]

مـا الحُسـن ذنبـاً ، فَمـا للحـب تَحسـبِهُ
ذنبـاً مـن النَّـاسِ لا يَمْحُـوه غُفْـرَانُ.

همـــا شَـــقِيقَان فـــارفقْ أنْ تحيلَهُمـــا
ضِـــدَّين بيْنهَمـــا نـــأيٌ وهُجـــرانُ

مــن علــم النَّــاس أنَّ الحــبَّ مأثمــةٌ
حتـى كأنْ ليسَ غَيرَ البُغضِ إحْسَانُ

هَبهَـــا جِنَايـــةَ جَـــان أنـــت آثِمُهـــا
مَـا كَـانَ يُعصـم لا إنـسٌ ولا جَـانُ

إنَّ الجســـومَ مثنَـــاةُ جَوارحُهـــا
إلا القلـوب فَصـيغتْ وهـي أحْـدَانُ

لكـــلَ قَلـــبٍ قَـــرينٌ يُســـتتمُّ بـــه
خَلـق وخلْـق فهـل يُرضِـيكَ نقْصَـانُ

إنُ التَعـــاطُفَ بـــالأرْواحِ بُغْيَتُنـــا
وفـي الوجـوهِ علـى الأرْواحِ عِنْـوانُ

١- روع : صباحة وجمال - أحداق : الحدقة السواد المستدير وسط العين ويجمع على حدق وأحداق - أعيان : عيون .
٢- تعذلهم : العذل اللوم ، والعواذل من النساء جمع عاذلة أي لائمة .

تمثَّالكَ الصَّخْر أحْظَى منك إنْ نَفَرَتْ

عنّكَ العيونُ ، ولم يشْمَلْك وجدانُ

ولما كانت هذه صفات محبوبته المعنوية والحسية ، فقد أراد الشاعر أن يظهر ولعه بها ومعاناته من حبه لها ، ذلك الحب الذي اشتد به وأضناه وتحير به ، فمرة يبديه ويظهره وأخرى يخفيه ويكتمه أملاً في إرضاء أو رضا محبوبته لكنه لا يلقي منها إلا الصد والهجران والتغافل ؛ على الرغم من كثرة مدحه لها بأشعاره التي هي خلاصة فكره ونبض مشاعره وأحاسيسه .

ثم يتساءل الشاعر إذا كان هذا هو جمال محبوبته فَلِمَ اللوم على حبه لها مع أن الحب ليس ذنباً كما يتصوره كثير من الناس ؟ كما أن الحب قرين الحسن والجمال بل هما شقيقان لا ينفصلان بل بينهما تلازم وترابط ، وأنه لا يعصم إنس ولا جان من الوقوع في شرك حب الجمال وبخاصة المرأة الجميلة ، ولا ينكر ذلك إلا من تحجرت قلوبهم وتبلدت أحاسيسهم ومشاعرهم، فتصوروا أن الشقاق والهجر هما الحب والإحسان .

وبأسلوب تغلب عليه الترعة الفكرية بيّن الشاعر أن الحب لو كان جناية - كما يزعم الناس - فإنها جناية لا يتبرأ منها أحد ، وليس في مقدورهم أن يتخلصوا منها إذا ما التاطت بقلوبهم وعلقت بأرواحهم ، ويعلل ذلك بأن جوارح الإنسان مثناة إلا القلوب ، فقد خلقها الله وصاغها في الجسوم واحدة، وكي تكون مثناة مثل بقية الجوارح فإنها تحتاج إلى قرين يكملها من الجسوم الأخرى كي يكون بينهما التعاطف الروحي .

ونلمح من هذا أن " العقاد " كان ولعاً بالجمال ، وجمال المرأة بالذات فقاده ولعه بالجمال هذا إلى الحب فراح يبحث عنه في كل إمرأة جميلة تصادفه

ومن ثم خلت حياة " العقاد " العريضة من المرأة حسبما يتفق وشريعة الحب لا حسبما يتفق والتقاليد المتوارثة عن الدين والتي أعتنقها الآباء والأجداد ، وتلك التقاليد هي الزواج ، لكنه على الرغم من ذلك فقد استمتع بالمرأة وتألم ولذت له الحياة معها وتنغصت ، فمنحته المرأة خير ما تعطيه لرجل وسامته شرما تسومه لرجل كذلك ؛ وقد ظهر ذلك في شعره الذي عبر فيه عن سعادته بالمرأة وحبه لها ولعه بجمالها حين تعاطيه الحب، وكذلك يظهر في شعره الذي ذرف فيه دموعه بسبب ما صنعت به المرأة حين يخبو الحب وتنطفيء شعلته [١]

ويستمر الشاعر في وصف ما يعتمل في صدره وقلبه من حب للجمال الذي يعد حباً لكل شيء. فيقول :

إنا لمن مَعْشر حبُّ الَجمالِ لهم
حب لَما كانَ في الدُّنيا ومَنْ كَانُوا
ليأمنِ الطَّير أنّا لا نَكِيدُ لَهُ
ولا يخفْ مَكْرَنا وحشٌ وعقبانُ[٢]
لو تسَمع الوُرْقُ نَجوانا لكانَ لَها
منَّا غصونٌ نَضِيراتٌ وأحْضَانُ[٣]
أو كانَ بِدْرِي حَيىٌّ النَّبت عِفْتَنا
لم تُغض مَنه بأيْدينَا أغَيْصانُ [٤]

١- أنظر : المرأة في حياة العقاد ، د / عبد الحي دياب صـ ١١ ، دار الشعب ١٩٨٦.
٢- العقبان : العقاب طائر من العناق ، ويقع على الذكر والأنثى ، وقيل هي عتاق الطير وسباعه التي تصيد .
٣- الورق : الحمائم والمفرد ورقاء ، والأورق الذي لونه بين السواد والغبرة - أحضان : يقال حضن الطائر بيضه بحضن حضناً وحضانة أي وجن عليه للتفريخ ، ويقال حضن الطائر بيضه إذا ضمه إلى نفسه تحت جناحيه وهو المعنى المطلوب في هذا البيت ، والحضن في الإنسان هو الصدر والعضدان وما بينهما وفي الطير الصدر والجناحان.
٤- حيي : يقال رجل حيي ذو حياء بوزن فعيل ،وامرأة حيية .

أو يَنظـــرُ السَـــائمُ النَـــابي طَوْيتنـــا

لـــم تـــالف القفـــر آرامٌ وغِـــزْلانُ [1]

ولا اتقـــى الحـــوتُ شـــرّاً حـــينَ يُبْصـــرنَا

إذا وقتـــهُ شـــباكَ الإنـــس قيعـــانُ [2]

يـــا ليـــتَ أنَ لَنـــا كَهْفـــاً تَعـــوذُ بِـــه

إنْ رَاحَ يُفْزعهَـــا بَغـــيٌ وعـــدوانُ

مـــا ضـــرّ قانصـــها أن لا يكـــونَ لَهـــا

غيـــرُ الفَـــلا وحجـــازُ الأفـــقِ قُضْـــبانُ

أيـــن الَحمـــائمُ تَشْـــدُو فـــي أرائِكَهـــا

مِـــن الحمـــائِم يشْـــويهنَ مبْطَـــانُ

أو الطُّيـــور عَلـــى الســـفَود نَاضـــجةً

مِـــن الطيـــور تهـــاداهُنَ أَفنـــانُ [3]

لـــو أطْلَقُوهَـــا كَمـــا شَـــاءتْ لَكـــانَ لَهـــم

مِنهـــا قِيـــانٌ كَمـــا شـــاؤا ونـــدمانُ [4]

يفصح الشاعر عن انشغاله بمحبوبته التي تتمتع بذلك الجمال الآخاذ، الذي لا يعرف معناه ولا حقيقته إلا النفوس المخلصة ، التي ترى أن حب الجمال إنما

١- السائم : الذاهب على وجهه حيث شاء والجمع سوائم ومنه سامت الإبل والماشية أي رعت . النابي : الثور الذي ينبأ من أرض إلى أرض أي يخرج . آرام : الأعلام وهي حجارة تجمع وتنصب في المفازة يهتدي بها ، واحدها إرم - القفر - القفرة : الخلاء من الأرض وجمعه قفار وقفور ، وقيل القفر مفازة لا نبات بها ولا ماء.

٢- قيعان : جمع قاع وقاعة رفيع : وهي أرض واسعة سهلة مطمئنة مستوية حرة لا ارتفاع فيها ولا انهباط ، وما حواليها أرفع منها وهو مصب المياه أو هي الأرض التي تنفرج عنها الجبال والأكمام .

٣- السفود : الحديدة التي يشوى عليها ، والجمع سفافيد.

٤- ندمان : نادم الرجل منادمة وناداها : جالسة على الشراب والنديم : المنادم والجمع ندماء وندمان . والمعنى أن الناس لو تركوا الطيور لحالها لكان لهم منها أصحاب وخلان.

هو حب كل شيء ، وأنه مصدر سعادة لمن ينشدها في كل أحواله ، مع محبوبته مع الطيور مع الأشجار والوحوش والحيتان في المياه .

كما أنه أي الحب وسيلة تطهر النفوس ، وتعمل على صفائها ونقائها، وتهدي إلى معرفة الواجب والقيام به ، ولعل هذا هو منزع الرومانتيكيين في حبهم الذي كانوا ينظرون من خلاله إلى المرأة ، على أنها ملك هبط من السماء ؛ ليطهر قلوبنا بالحب ويرقي بعواطفنا ويذكي شعورنا، ويشجعنا على النهوض بأعباء واجباتنا الخلقية والسياسة والوطنية [1]، وأن الكون إذا خلا من الحب انطفأت الشمس ، وأن الله هو المركز الذي تنجذب إليه أصول الأشياء كلها ، وإلى صفة واحدة من صفاته يرجع الخلق والتقدير والأحياء والغرس والوجود والعدم تلك الصفة هي الحب .

وأخيراً فإن الحب مأمون العاقبة في تكوين الفضائل وفي تفتح المواهب ونضج العبقرية [2].

وبناء على هذه النظرة وتلك الفكرة نحو الجمال ، فقد تمثل " العقاد " لقاء محبوبته ، بين الطيور والحمائم والنباتات ، بأزهيرها التي تتجاوب مع هذا اللقاء، بين الشاعر ومحبوبته وتشهد كلها على عفة وطهارة هذا الحب ، وكذلك بين الحيتان وقد تظللت بهذا الحب الذي اصطبغت به كل عناصر الطبيعة .

ثم يُلقي الشاعر نظرة نحو هذين القلبين ، (قلبه الذي يحترق شوقاً ومحبة كما تشوي الحمائم والطيور على السفود ، وقلب محبوبته الذي يتدله فرحاً مسروراً كالطيور تتهادي بها الأغصان) ، ويرى أن ذلك من مفارقات القدرة

١- أنظر الرومانتيكية ، د/ محمد غنيمي هلال صـ ١٤٩ ،١٥٠، ١٥١، نهضة مصر بالفجالة .
٢- أنظر الرومانتكية صـ ١٤٥.

الخالقة في الحب ، تلك المفارقة التي تهزأ بالظواهر والأشكال ، وتلعب بالأحاسيس والمشاعر ، ويلتفت الشاعر إلى أثر هذه المفارقة فيرى أن هذه المشاعر التي تكمن في غيابة قلبه ومجاهل نفسه وتحترق منها أضلاعه تحتاج إلى قرين يشعر بها ، ويتجاوب معها .

ولا يزال الشاعر يصف محبوبته ويبرهن على سبب تعلقه وشغفه بها فيقول:

هَلْ يَعِرفُ البيضُ أنّ الحسنَ جَوهرةٌ
لَها الثَراءُ ، ثَراءُ النَّفسِ ، أثْمانُ
يَقْنُوُ نفائِسَه مَن لا يسوَّمه
وقد يَعزِ على اللآلَ قنيان[1]
يا جوهراً بتُ أرعاه على أمَمٍ
رَعْيَ الشَحْيحِ ، ومَالي فيهِ سُلْطَانُ[2]
ما في يَدِى مِنَه لا عين ولا أثر
ولي عَليهِ مَغَاليْقُ وأعْيَانُ [3]
قد نِلتُ ما نِلتُ من حظٍ بِه عَرَضاً
وقَدْ تَولى ، فَحظِى مِنه فُقْدَانُ
إنّي إلى الرعَى من عيْنَيكَ مُفْتَقِرٌ
يا ضوءَ قَلْبي ، فإنَّ القَلبَ مدْخانُ[4]
مَنْ لي بِمهدكَ تَرعَاني لَواحظُه

١- يقنو : قنون الشيء قنواً وقنواناً واقتيته : كسبته . قنيان : ما يتخذ قنية أي مكسب . يسومه : يرعاه .
٢- أمم : الأمم القرب ، يقال أخذت ذلم من أمم أي من قرب وأرعاه على امم أي على قرب .
٣- العين : جمع عيناء ، وهي الواسعة العين - أعيان : جواسيس
٤- مدجان : الدجن ظلم الغيم في اليوم المطير ، والدجن إلباس الغيم الأرض : أدجن يومنا إذا أصب فأظلم.

ورُبَّ مُسْـــتقيظٍ يَرْعَـــاهُ نَعْســـانُ

لـــو أسَـــتْطَيعُ لوقَـــاهُ وظَلَّلَـــهُ

قلـبٌ تَنـام الـدرارِى ، وهـو جَـوْلانُ[١]

أبيْـتُ أُزجـي إليـهِ كـلُ ضَـاحِكةٍ

مـــن الأمـــانّي يُـــوحهينَ فتَـــانُ

أزجـــي عـــرائس أحـــلام تَيممَـــهُ

فـي زَبـرج بالحيـاءِ الغـضَّ يَـزدانُ[٢]

تَمضـــي بـــه بـــين جَنَّـــاتٌ مَزْخَرفـــةٍ

فـــيهنَّ حُـــورٌ وأمَـــلاكٌ وولْـــدَانُ

وسَـــاجعاتٌ تناغيـــه علـــى كَثَـــبٍ

حتَّـــى يُنبهـــه مـــنهنَّ إرنـــانُ[٣]

إذا تنَقـــل أو أســـرى فَمَهبِطُـــهُ

من خَـالصِ العَسـجْدِ الوَهْـاجِ أفْـدانُ[٤]

مســـتمريٌ طيـــبَ مجناهَـــا وبَهْجَتِهـــا

قَلـبٌ غريـر ولَحـظٌ منـه سَـكْرانُ [٥]

وبـاتَ للقلـب فـي جـنح الظَّـلامِ إلـى

١- الدرارى : الكواكب اللامعة والمفرد درى - جولان - متحرك مضطرب .
٢- تيممه : يقال تيمم الشيء قصده ، ويممته : قصدته . زبرج : الزينة والوشى .
٣- ساجعات : يقال سجع الحمام يسجع سجعاً : هدل على جهة واحدة ، وجع الحمام موالاة أصواتها على طريق واحد - إرنان : الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند الغناء أو البكاء أو صوت الحمام : يقال أرنت الحمائم في سجعها .
٤- العسجد : الذهب ، وقيل هو اسم جامع للجوهر كله من الدر والياقوت - أفدان : قصور مشيدة .
٥- الغرير : المخدوع . من غرر يغره غراً وغروراً أي خدعه وأطعمه بالباطل .

دَبيـبِ أحْلامـهِ صَـغْو وإرغـانُ [1]

حَسـبي السـهادُ إذا مَـا بِـتُّ أذكـرهُ

وطرفـهُ الأكْحـلُ الوَسْـنانُ وسْـنانُ [2]

إنـي لأغْـنُم وصـلاً فـي تَمنعِـهِ

وَعطْفِـه ، وكـلا الوَصْـلين مِفْتـانُ

يحـاول الشـاعر أن يـبرهن علـى مـا في نفسـه مـن حـب وشـوق لمحبوتـه ، فهـي ليسـت مـن أغمـار مـن يلقـي مـن النسـاء وليسـت مـن لـون مـا للنسـاء مـن قامـات وأشـكال ؛ إذ تمتـاز بجمـال يخـالف جمـالهن فهـي جـوهرة ؛ لـما تحملـه بـين جنباتهـا مـن نفس أبية تعز على كثير من الناس ممن يتمتعون بالجمال الحسي الظاهر.

ونلحـظ مـن هـذا أن الشـاعر لا يتغـزل بالجمـال الحسـي للمـرآة ، أو التعلـق بمفاتنهـا وإظهارهـا ، وهـذا بخـلاف " ابـن الرومـي " الـذي تعلـق بالجمـال الحسـي الظـاهر ، فـراح يصـف المـرأة وصـفاً حسـياً دقيقـاً . لعـل ذلـك يحـد مـن ثورتـه نحـو شـهوة الحـس والمتعـة ، لكـن " العقـاد " يـرى محبوبتـه وقـد تجملـت بهـذه الـنفس الغنيـة بـالعزة والكرامـة . فهـي في مجملـها جـوهرة مكنونـة ، جعـل مـن نفسـه رقيبـاً عليهـا ، وهـو لا يملـك منهـا شـيئاً . بـل إنـه مـن شـدة غيرتـه عليهـا يجعـل عليهـا عيونـاً ورقبـاء يحرسونها من نظرات الآخرين .

ويؤكـد الشـاعر علـى أن محبوبتـه صـعبة المنـال ، ومـا نالـه مـن وصـل إنمـا كـان عرضـاً قليلاً ، دون سابق موعد مما يشعر بفقدها الذي هو كل حظه منها .

١- صغو : صغا إليه يصغى ويصغو صغواً وصغواً : مال ، وأصغي إليه رأسه : أماله . إرغان : الإصغاء إلى القول وقبوله.

٢- وسنان : يقال إمرأة وسنى ووسنانة : فاترة الطرف شبهت بالمرأة الوسنى من النوم ووسنان الثانية : أي الذي أخذته سنة من النوم.

لذا نراه يتطلع إلى نظرة من عينيها ؛ لتضيء قلبه الذي أظلم وأضب بغيابها عنه ، وتدللها عليه ، الأمر الذي جعله لا يغفل ولا ينام ، فقد أفلت النجوم والكواكب ، وهو يقظ يتمنى لقاءها ؛ ليسكن من روعة قلبه المضطرب ، ويطفيء من ثورة نفسه المتشوقة إلى هذا اللقاء ، ونلمح هذا الإحساس من قوله :

لـــو أسَـــتْطَيعُ لوقَـــاهُ وظَلَلَـــهُ

قلـبٌ تَنـام الـدرارِى ، وهـو جَـوْلانُ

لكن الشاعر لا يملك تجاه هذا التشوق إلا أن يهدي محبوبته تلك الأحلام والأماني التي هي من وحي جمالها ، في صورة تبرهن على طهارة نفسه وعفتها ، فهي أي الأحلام تتسم بالحياء والطهارة فهي على صورة الحور العين والملائكة والولدان المخلدين ، فهو لا يريد أن يفزعها في مهدها ويريد أن تستيقظ على شدو الحمائم وغناء الطيور.

وهذه صورة تتناسب مع ما عليه محبوبته ، من النعيم والعيش الرغد الذي تتقلب فيه ليلاً ونهاراً .

ولما أحس الشاعر باليأس من لقائها والوصول إليها جعل من قلبه - في جنح الظلام - رقيباً على أحلامها لعله يحظى بسماع تلك الأحلام ، ولما كان هذا صعباً إدراكه فقد رجع الشاعر إلى نفسه وما أصابها ، فأيقن أنه لا يملك إلا أن يعيش على ذكراها ويكتفي بالسهر والتفكير في جمال عينيها ، ولم لا وقد رأى في تمنعها وصلا وقرباً وفي لقائها وعطفها فتنة ومتعة أو كلا الوصلين مفتان .

وهكذا نرى أن الشاعر قد أحب محبوبته في قربها ووصلها ، كما أحبها في بعدها ونأيها وتتدللها ، مما يدل على صدق شعوره وإخلاصه في حبه لها .

كما نلحظ أنه حب تسامت فيه النفس عن غريزة الشهوة والحس ، بل يكفيه أن يبيت ليلة مفكراً في جمالها وحسنها دون أن ينعم بلقياها ، مهما كلفه ذلك من شقاء .

ومن هذا نرى أن " العقاد " قد استطاع أن يعبر عن رأيه في الحب والمرآة ، فرأى أن الحب لكثرة عناصره أقرب إلى الشقاء منه إلى السعادة لأنه عرضة لافترَق الهوى في النفس الواحدة حين تتناقض الرغبة والكرامة أو تتناقض أسباب الألفة وأسباب النفور ، وعرضة لافترَق الهوى بين نفسين اثنين لا تزول الحواجز بينهما كل الزوال وإن أفرطا في المودة والوفاء [1] .

ومع ذلك فلابد للإنسان من خوض تجربة حب ؛ ليعرف نفسه ؛ إذ إن الإنسان لا يجد نفسه في شيء كما يجدها في الحب . وأنه لا يعرف ما فيها من قوة وضعف ، ومن عطف وجمود ، ومن رحمة وقسوة ، ومن خفايا وظواهر ومن فجيعة وضحك ، ومن حكمة وحماقة .. من إنسانية وحيوانية إلا من خلال الحب الذي هو ومعرفة النفس صنوان [2]

لذا فقد رأيناه وقد أضناه الحب ، وأصابه السهاد والقلق ، مع علمه أن المرآة التي استحوذت على قلبه هي من أكبر حبال الحياة ، ومن تعلق منها بسبب فقد تعلق من الحياة بأسباب ، وخاض من الدنيا في أعمق الغمرات ، ولا يرفض المرأة والحب إلا من يرفض الحياة [3]

١- أنظر هذه الشجرة عباس محمود العقاد صـ ١٨٥.
٢- أنظر ، يسألونك - العقاد صـ ٤٨.
٣- أنظر ، مطالعات في الكتب والحياة - العقاد صـ ١٤١.

وإذا كانت هذه نظرات " العقاد " ورأيه في الحب ، فلا غرابة أن نسمع منه تلك النغمات العذبة الساحرة التي أباح فيها بمكنون نفسه ، ورأى الغنم في تمنع المحبوبة ووصلها على السواء .

ويستمر العقاد في التعبير عن تجربته من خلال دفقات شعورية فياضه فيقول :

ما ضرّ من نَالَ في حينِ سَعادتَه
إن فاتهُ في طَويلِ الدَّهر أحْيان
إذا جنيتَ مِنَ الأيامِ زَهْرتَها
فَأقْنعْ فَسائِرهَا شَوْكٌ وعِيْدَانُ[1]
ولا وَربِكَ مَا بالنَّفسِ مقتنعٌ
أكانَ نجحٌ لها أَمْ كَانَ حِرمَانُ[2]
فإن رَوْينا ، فبعضُ الرَّى مظمأة
وأن ظَمِئنَا ، فَما يرتْاحُ ظمآنُ
أيُّ الفَريقينِ أحْمَى لهفةٌ ووجىّ؟
من ذَاقَ أو لَمْ يَذقْ ، فالكلُ لَهفَانُ [3]
يا ليلةً حُطمت أنوالُ حائِكَها
فلا يُحاكُ لَها في الدَّهرِ ثُنيانُ[4]
العيشُ مِن قَبلِها شَوقٌ نَعمتُ بِه

١- عيدان : كل ما جرى فيه الماء من الشجر .
٢- نجح : النجح والنجاح : الظفر بالشيء والفوز به .
٣- أحمى : حمى النهار ، وحمى التنور حمياً أي أشتد حره وحمى الفرس حمى : سخن وعرق . والمعنى : أي أشد لهفة . ووجي : الوجي التعب والخفي والقتور ، ووجي : لتوعن المشي.
٤- ثنيان : الثنى من الرجال بعد السيد وهو الثنيان ، والثنيان بالضم الذي يكون دون السيد في المرتبة . ويقال للذي يجيء ثانياً في السؤود ثنيان وثنى . والمعنى أن هذه الليلة ليس لها نظير في الجمال والبهاء ، حاك : أصله حوك يحوكه حوكاً وحياكاً وحياكة : نسجه ورجل حائك أي ناسج.

والعـيشُ مـن بَعْـدِها ذكـرٌ وتحنـانُ

طالـــتْ ولا غـــرو فالجنَّـــاتُ خالـــدةٌ

وفـــي الوِصَـــالِ مـــن الجنَّـــاتِ ألـــوانُ

أصـــــــبحتُ واللهِ لا أدْري بهجتهـــــا

أليلـــــةٌ سَـــــلَفتْ أَمْ تِلـــــكَ أَزْمَـــــانُ

وكيـفَ لا وهـي شـطرٌ حـين أحسـبُها

والعمْرُ شطرٌ ، وفيها عنهُ رُجْحَانُ[1]

لقـــد سَـــقَانا الهـــوى خَمـــراً معتَقـــةً

صَـــبابها قَبْلنـــا شِـــيبٌ وشُـــبَانُ [2]

هيهـــاتَ لا تبلـــغُ الصَّـــهباءُ نشـــوتَها

ولـــو تنـــاولَ منهـــا البحـــرَ نَشْـــوَانُ [3]

فَـاضَ الهيـامُ علـى قلبـي فَفَـاضَ بـهِ

نبـعٌ لـهُ مـن وراءِ الـدّمع شـطآنُ [4]

وددتُ والـــدَّمع فـــي عينـــيَّ محتجـــزٌ

لـو سَـال منـه علـى خـدي غـدرانُ[5]

أمســيتُ أرشــفُ شــهداً مــن مَراشِــفهِ

١- رجحان : رجح الشيء يرجع وجوحاً ورجحاناً (بالضم والفتح) مال وثقل والمعنى أن هذه الليلة تزيد عن شطر عمر الشاعر .

٢- معتقة : أي التي حبست زماناً في ظرفها حتى عتقت أي قدمت - صبا يصبو صبوة وصبوا أي مال إلى الجهل والفتوة ، والمعنى أن هذه الخمر فتنت الشباب والشيب .

٣- نشوان : يقال نشيء الرجل من الشراب نشواً ونشوة : سكر فهو نشوان أي سكران .

٤- شطآن : شواطيء.

٥- محتجز : أي تحجز الدمع في العيون . غدران : مستنقع ماء المطر .

والسَلْسَبيلُ بِعْلِيين غَيْرانُ[1]

والنَّيل تَجْرى لَهُ في كلُ نَاحيةٍ

جداولٌ لؤلؤياتٌ وثُغْبانُ [2]

يَقُودنَا حيثُ شَاء الموجُ واطَّردتْ

أمواهُ ، فكأن الفُلْكَ وسْنَانُ

حتى تصرَّم جنح اللَيلِ وانْبَثقتْ

من كلُ مطلُع للصبحِ عِمْدانُ[3]

فَمَا أفقنَا وعْينُ الصُّبح شَارقة

وما هَجَدْنا وغُول اللَيلِ سَهْرانُ [4]

بِنا سِوى الشَمس والشُّهبان نَرصُدُها

شموس أنسٍ مُضِيْئات وشُهبانُ

ما زَل الشاعر يسجل بقريحته ويرسم بريشته أصداء نفسه الحالمة ، وما يعتمل فيها من حب وشوق ، تجاه محبوبته وما في طبيعتها من جمال روحي فطري ، يُدخل السعادة والنعيم في قلبه ، ولو كانت لحظة من اللحظات أو ليلة من الليالي ، وهذه اللحظات كفيلة بأن تجعل المحب قانعاً بما جناه فيها من وصل وقرب ، وبخاصة وأن الحياة لا تسير على نهج واحد من الصفاء ، لكن النفس مجبولة على الطمع وعدم القناعة ، سواء أكان في ذلك فوزها أم هلاكها وحرمانها،

١- أرشف : رشف الماء والريق : مصه . والرشف ماء قليل يبقي في الحوض . والرشوف : المرأة الطيبة الفم.
٢- ثغبان : الثغب : الغدير يكون في ظل جبل لا تصيبه الشمس ، فيبرد ماؤه والجمع ثُغبان وثُغبان .
٣- عمدان : عمود الصبح : ما تبلج من ضوئه وهو المستظهر منه ، وسطع عمود الصبح على التشبيه بذلك.
٤- هجد : نام ، والهاجد النائم.

ويعيش المحب في كلا الحالتين في لهفة وشوق وتعطش ذاق الحب أم لم يذقه ، وهذا ما جعل الشاعر يتساءل قائلاً :

أيُّ الفَريقينِ أحْمَى لهفةً ووجىّ؟

من ذَاقَ أو لَمْ يَذقْ ، فالكلُ لَهفَانُ

وعلى الرغم من ذلك فإن سعادة الحب لدى " العقاد " لا تغيب عن نفسه وقلبه، فنراه يتحدث عن النعيم وليالي الوصال التي قضاها مع صاحبته ومحبوبته فيقول واصفاً تلك الليلة : أنه نعم فيها بالوصل من محبوبته ، وأنه لجمال هذه الليلة وما فيها من نعيم يصعب تكرارها ؛ إذ لا نظير لها في الجمال ، فقد حطمت أنوال حائكها ، وقد كان العيش قبلها شوقاً ينعم به وخلالها وصلاً ونعيماً ونغماً ، وبعدها كان العيش ذكراً لها وتحناناً إليها ، ولم لا تكون بهذه الصورة ، وقد طالت وطال فيها الوصل والقرب ، ولا عجب في طولها ؛ لأن الجنات خالدة ودائمة وفي الوصال والنعيم ألوان من هذه الجنات . بل إنه لطولها وتمتعه فيها بهذه الألوان من النعيم لا يدري أهي ليلة أم أنها أزمان ، ويبالغ الشاعر في ذلك فيرى أنها تساوي شطر عمره بل تزيد عليه وتثقله .

ويستمر الشاعر - بإحساسه المتوقد وعواطفه الجياشة الصادقة في رسم ما حدث في هذه الليلة من ألوان النعيم والقرب ، فيرى أنها كانت تشبه الخمر المعتقة التي تفتن الشيب والشبان ، لكنها لم تؤثر فيه ولم يغب عن وعيه ؛ إذ إنه يحيا بهذا الحب الذي فاض على قلبه وتمنى لو سال الدمع من عينيه أنهاراً تعبيراً عن فرحه وسروره بهذا اللقاء ، الذي نال فيه كل ما يشبع نهمه ويحد من شوقه ويبل غلته وظمأه بهذا الرشف العذب ، الذي يشبه السلسبيل في عليين .

وكعادته يختلط بالطبيعة التي طالما لجأ إليها ، ليرسم صورة هذه الليلة فيرى أنه قد أحيط بجداول النيل الرقراقة الصافية تجري هنا وهناك ويحمله الموج حيث يشاء ، وغول قائم على حراسته ، ونور الكواكب والنجوم تضيء جنبات الكون حتى صار الليل وكأنه نهار مضيء.

من الملحوظ هنا أن الشاعر قد جعل الليل ظرفاً للهناء ولقاء المحبوب والاستمتاع بالقرب منه ، فانقشع ظلامه وصار نيراً كأنه نهار ، وقد أطال الشاعر الليل حتى رأى هذه الليلة وكأنها أزمان ، لكنها في النعيم والهناء . وهذا بخلاف بعض الشعراء الذين شكوا من طول الليل وشدة ظلامه ، لما تحملوه من الهموم والأحزان . بل إنهم جعلوا الليل سبباً في تلك الهموم . فهذا " امرؤ القيس " يشكو من طول ليله وما نزل به من أنواع الهموم حتى تمنى زوال هذا الليل ، فيقول :

ألا أيُّها الليّلُ الطويلُ ألا انجْلي

بصبح وما إلا صباحُ منك بأمَثلَ

فَيا لكَ من ليلٍ كأنْ نُجومَه

بأمراسِ كتان إلى صُمَّ جندل

ولعل هذا يرجع إلى نفسية الشاعر ومزاجه ، وبخاصة إذا علمنا أن" العقاد " قد رأى النعم في وصل المحبوبة وهجرها على حد سواء . فيعيش ليلة حالماً بها ونهاره ذاكراً لها وهذا لم يتوافر " لإمريء القيس " الذي جعل من ليلة ظرفاً للهم والحزن .

ويستمر الشاعر في وصف هذه الليلة ، فيقول :

سَـمِعتُ أعـذبَ مـا يفتـرَ عَنـهُ فَـمٌ

مـن الحـديثِ ومـاَ سـاغَتهُ أذانُ[1]

فصـاحةٌ لَثمـتْ رُوحـي بهـا شـفةٌ

لـو ذَاقَهـا النَّحـل لـم يَمـرأْهُ ريحْـانُ[2]

أنفـى لـرين النُّهـي مـن كـل مـا نَقَشـتْ

علـى الصَـحَائف أعـرابٌ ويونـانُ [3]

تهتـزُّ بـين طَوايـا الـنَّفس نَبْرتُهـا

كَمـا يَمـوجُ لضَـوءِ الشَّـمس خَيْطَـانُ

ذَرِ الدسـاتينَ تَحْـدو وهـي ضَـارِبة

مـن لـيسَ تحـدوهُ أشـواقٌ وأُحَـزانُ[4]

وأَطـربُ لصـوت تَعـالى أن يُحاكيـهِ

حـاكٍ ، وتُعـربَ عـن فَحْـواه أفَنـانُ

مـا أنشـدَ النَّـاسُ إلا كـي تُـذكرَهُم

صـوتَ الحبيـب أناشـيدٌ وألحـانُ

ولا تعَلـمَ وزنَ القـولِ شَـاعرُهم

إلاّ وَكـانَ لَـهُ بـالنَّبضِ ميـزَانُ

١- يفتر : فتر الماء : سكن حره ، وفتر السحاب أي قطر وفرغ ماؤه ، والمعنى أنه سمع كلاماً عذباً رقيقاً - ساغ : ساغ الشراب في الحلق يسوغ سوغاً وسواغاً : سهل مدخله في الحلق ، وشراب سائغ وأسوغ : عذب .

٢- لثم : اللثام : لثمت : إذا أراد التقبيل ، ولثمت فاها إذا قبلتها ، واللثام ما كان على الفم من النقاب - مرأ : يقال مرأ الطعام : صار مرئياً ، ويقال مريء لي هذا الطعام مراءة أي استمرأته .

٣- النهي : العقل . انفي : اشد نفياً وإبعاداً .

٤- الدساتين : جمع دستان وهو الوتر . والمعنى ان المعازف بأوتارها إنما تستحث إلى الشوق من لا شوق عنده ، وأما من هو مفعم بالشوق فلا حاجة به إليها

ما زلنا مع الشاعر وهو يصف لنا - بإحساسه المرهف ونفسه المفعمة بالحب والشوق - هذه الليلة التي نعم فيها بوصل محبوبته ، فلم يدع جانباً من هذه الليلة إلا وصفه وصفاً ينم عن حب يلف كيانه ، ويجعله في حالة من الهيام والوجد . فاستمتع بفصاحتها وحديثها الحلو المعسول الذي سرى إلى الأذن سهلاً مستساغاً ، وذاقت روحه طعم حلاوته التي لو ذاقها النحل ما استمرأ الريحان .

ولما كانت هذه هي مشاعره الفياضة بالحب والشوق ، أراد أن يبين أن هذه المشاعر نابعة من قلبه وعقله ، وليس عليهما عتامة أو غمامة أو جهالة؛ كي لا يظن أحد أن الشاعر لا يعي ما يقول ، أو أن ذلك مجرد حُلم ، لكنها الحقيقة والإحساس الصادق الذي صور نبرات المحبوبة تسري بين حنايا نفسه ، وتموج كما يموج الخيط الرقيق من ضوء الشمس الذهبي ، في نشوة وفرح.

كما أن هذا الإحساس وذلك الشوق لا يحتاج إلى ما يستحثه أو يخرجه من أعماقه ، إنه شوق طبعي تعلق بقلبه ، جعله يطرب لصوت محبوبته ، ذلك الصوت الذي لا يشابهه صوت في الجمال والرقة والعذوبة ، والذي ما أنشد الناس إلا أملاً في سماع مثل هذا الصوت الرخيم والنغمات العذبة الرقيقة ، وما نظم الشعراء إلا على تلك النغمات والترنيمات.

وهكذا استطاع الشاعر التعبير عن تجربته ومشاعره ، التي صدر فيها عن إحساس غامر بالحب والشوق ، تمثل في هذا اللقاء وفي هذه الليلة ، التي ذاق فيها طعم النعيم والقرب من المحبوب ، وفاض فيها الحب على قلبه فراح يرشف شهداً أعذب من السلسبيل في عليين ، وطرب لصوتها الرخيم العذب ، وفي هذا دلالة على أن " العقاد " قد أحب المرآة ودان لها . أحبها بالجسم والروح معاً ، أحب قدها ووجهها وصوتها وراح يذرف الدموع الملتهبة من شدة الوجد ويعب من الرشيف ،

ويقبل الوجه واليدين ، لعله يبرد غلته ويطفيء ظمئه ، وفي قصيدة أخرى ما يؤكد هذا المعنى :

وأُلثُمُـــهُ كَيْمـــا أبَـــردَ غُلتَـــي

وهيهـاتَ لا تَلقـى مـعَ النَّـارِ رَاوِيـا

فقبَّلـــتُ كَفْيـــهِ وقَبلـــتُ ثَغْـــرَه

وقبلـتُ خَديـهِ ومَـا زِلـتُ صَـادِيا

كأنـا نَـذودُ البـين بـالقرب بَيْننـا

فَنشْـتَدُ مـن خَـوفِ الفُـراقِ تَـدانيا

وعلـى الـرغم مـن ذلـك فإنـه لم يُقبـل علـى المـرأة أو لم يفعـل ذلـك لجمالهـا أو للتشهي أو التلهي وإنما أقبل عليها لذاتها[1] ، وهو يصرح بذلك ، فيقول :

نَبئينـــي فَلســـتُ أعلـــمُ مـــاذَا

مِنـــك قَلْبـــي بحســـنه مَشْـــغُوف

كَـــلَ حســـنٍ أراك أكْبـــر منّـــهُ

إنّ مَعْنَـــاك تالـــدٌ وطَرِيـــف

لســـتُ أهـــواك للجمّـــالِ وإنْ كـــا

نَ ذَكـــاءً يـــذكي النهَـــى ويشُـــوف

لســـتُ أهـــواك للـــدَلالِ وإنْ كَـــا

نَ ظَريفـــاً يَصْـــبو إليـــهِ الظَّريـــف

١- أنظر،الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد،د/ نعمات أحمد فؤاد صـ١١٧طـ٢.دار المعارف ١٩٨٠.

ومن ثم نرى أن " العقاد " أحب المرأة جسداً وروحاً وجمالاً ، حباً حقيقياً عَبر عنه في كلمات تنم عن خبرته في فهم الحب ، فيقول [1]: " عند الحب سهر أحلى من حُلم النوم ، ونوم أيقظ من سهر الخلود .. عند الحب نور يطوي الشمس والقمر وموعد ينسى الليل والنهار... عند الحب حياة يهون من أجلها الموت ، وموت تباع من أجله الحياة ".

ومازال يجسد هذه المعاني في بقية قصيدته (الحب الأول) فيقول :

يا أملحَ النَّاسِ هلاَ كنتَ أكبرَهُم

روحاً ، فَيتفِقَا رَوحٌ وجثمانُ [2]

صدَّقتَ بَاطِلَ ما قَالوا كأنهمو

لا يكذبونَ ، أو أن العذْلَ قرآنُ[3]

أما عَلمتَ بأنّ النَّاس ألسنةٌ

سودٌ لَها غير ما تُبْديهِ إبطْانُ [4]

أحرى مزاعِمهم بالشَّك أسيرُها

فالحقُّ متئدٌ والإفكُ عَجْلانُ[5]

وربَّ قولةِ زورٍ قَالها رجلٌ

منهم فَطافَ بها في الأرضِ رُكْبانُ

١- آخر كلمات العقاد ، عامر العقاد صـ ٦٧ ، دار المعارف ١٩٦٥.

٢- ملح : الملح خلاف العذب من الماء ، والمِلْح : الحسن من الملاحة ، وقد ملح يملح ملوحة وملحا : حسن وهو المقصود هنا وعليه يكون ملح من أفعال الأضداد.

٣- العذل : اللّوم.

٤- إبطان : الباطن خلاف الظاهر ، والباطن المحتجب عن أبصار الخلائق وهو اسم من أسماء الله .

٥- متئد : متأني في الأمر وهو من الفعل تود أو من وأد وتكون التاء في الأولى غير أصلية - الإفك : الكذب وقيل الإثم ، أو المعنى هنا الكذب والباطل . عجلان : العجل والعجله السرعة خلاف البطء ، والمعنى أن الحق ثابت والكذب والباطل زائل .

تـــداولوها فراحـــتْ فـــي مَـــذاهِبهم

شـــريعةٌ نَقْضُـــهَا كُفـــرٌ وعِصْـــيانُ [1]

مـــا كثـــرة المثبتـــينَ الأمـــر تُثبتـــهُ

ولا بقلـــــتِهم للحـــــقَّ إيهـــــانُ [2]

فـــإن ألـــف ضـــريرٍ لـــيس يَعـــدِلُهم

بالمبْصـــرِ الفَـــردِ يـــومَ الشَّـــك ميـــزانُ

فاضـــربْ بنعلـــك دَعـــواهُم فكلهمـــو

خُوَّاض لَيلٍ،وهم في الصُّبح عميانُ[3]

وبعـد أن أسمعنـا الشـاعر نبضـات قلبـه ، وكشـف لنـا عـن خلجـات نفسـه ، واسـتمتاعه بـالقرب مـن المحبـوب ، حَشِـيَ مـن الواشـين والحـانقين ، أن يزرعـوا بـذور الشـقاق والبعـد بينـه وبـين محبوبتـه . فـراح يناجيـه ويناديـه أن يكـون أكبر مـن هـؤلاء جميعـاً روحـاً وجسـماً ، وألا يصـدق النـاس فيمـا يقولونـه ؛ إذ الكـذب واللّـوم سـجية مركـوزة في طبـائعهم ، وأنهـم يظهـرون بألسـنتهم السـود خـلاف مـا يبطنـون ، وأن مـزْعمهم باطلـة لا بقـاء لهـا في وجـه الحـق الـذي يبقـى ويـدوم ، " فأمّـا الزَّبـدُ فَيـذْهَبُ جُفَاء وأَمّا ما ينفعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ في الأَرض".

ويحـاول الشـاعر جاهـداً أن يـبرىء سـاحته مـا نسـب إليـه ، وأن مـا حـدث مـا هـو إلا قولـة زور قالهـا واحـد مـن النـاس فسـرت بـين النـاس كسـريان النـار في الهشـيم ،

١- نَقض : النقض إفساد ما أبرم ، والنقض : المراجعة والمراودة والمخالفة والأخيرة هي المعنية في البيت والمعنى : أن مخالفة ما تعارف عليه الناس - ولو كان باطلاً - أمر مستحيل في عرفهم.

٢- إيهان : الإيهان الخزي والتحقير . والمعنى : أن الحق لا يهان ولا يخزي ولو قل أنصاره .

٣- خواض : اصل الخوض المشي في الماء وتحريكه ، ثم استعمل في التلبس بالأمر والتصرف فيه في غير وجهه حيث أمكن ، والخوض في الكلام ما فيه الكذب والباطل وهو المقصود في البيت . ومنه قوله تعالى :
﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ... ﴾

حتى أصبحت عقيدة وشريعة في أذهانهم ، لا يستطيعون الفكاك منها أو الرجوع عنها ، لكن هذا ليس دليلاً على صدقهم . فالحق لا يضيع بقلة أنصاره كما أن الباطل لا يدوم بكثرة من يؤيدونه .

وهذه حقيقة صاغها الشاعر ؛ ليبرهن على عمق تجربته في الحياة ، ومعرفته بطبائع الناس ومجريات الأمور .

ولذا نراه يأمر محبوبه بأن يضرب كلام الناس بنعله وأن يضعه تحت أقدامه فكلهم كذابون وخواضون ويصرفون الأمور في غير نصابها ، وعندما ينبلج نور الحق يتعامون عنه ؛ إذ يتخذون من الليل ستاراً لمآربهم وشرورهم ، ولا يستطيعون مقاومة الحق والنور الذي يؤذي أعينهم ، ويصيبهم بالعمى .

ولعل هذه الدفقات الشعورية ، تدل على صدق الشاعر في حبه ، خاصة وأنه الحب الأول في حياته ؛ لذا نراه بكل ما أوتي من قوة شعورية ، وإحساس مرهف ، يحافظ على علاقته بمحبوبته ، مهما وشى الواشون وزعم المبطلون .

وهذه حقيقة تصلح للناس أجمعين ، وخاصة بين المحبين ، كما يمكن أن تكون منهجاً يسيرون عليه في كل علاقاتهم وتعاملاتهم .

وفي النهاية يلجأ الشاعر إلى ربه ، ويناجيه ويطلب أن يهبه بدراً ينير به ظلام قلبه ، كما وهب الليل بدراً أضاء الأكوان .

ثم ينفث هذه النفثة التي توحي باغترابه بين أهله وذوي رحمه وأصحابه وجيرانه الذين ليس له دخل في انتسابه إليهم ؛ لذا فإنه يريد أن يؤنس نفسه لا بهؤلاء الناس ، وإنما بالحور العين ، رمز الطهر والصفاء ، والنعيم الذي لا ينقطع ، والكواكب النيرة التي تهدي الضالين ، وتنير دروب السالكين ، وفي هذه النفثة يقول:

يــا واهــبَ اللّيــلَ بَــدْراً هَــبْ لمشــبهِهِ

بَــدْراً يضــيءُ لَــهُ والقلــبُ غَيْمــانُ[1]

أنــا الغريــبُ ولــي بــينَ الــوَرى رَحِــمٌ

بــالرَّغمِ منــي ، وأصْــحَابٌ وجِيــرْانُ[2]

وابعــثْ لَنــا الحــورَ فالإنســانُ لــيس لنَــا

بخــالصٍ منــهُ أحبــابٌ وأخْــدان [3]

أو الكواكــــبَ سِــــراباً بَيْننــــا غــــزلاً

إنَّ الفَضــــاءَ بِــذاكَ الســرب مــلآنُ

وهكــذا طــوف بنــا الشــاعر مــن خــلال هــذه التجربــة ، وأوقفنــا فيهــا علــى صــدق مشــاعره ورهافــة إحساســه ، ورأينــا كيــف اســتطاع أن يعــبر عــن تلــك التجربــة تعــبيراً ينم عما في نفسه من حب وشوق .

١- غيمان : الغيم : السحاب وقيل : هو ألا ترى شمساً من شدة الدجن وجمعه غيوم وغيام.

٢- الورى : الخلق وقال ابني جنى أن الورى لا يستعمل إلا منفياً . وسوغ هنا لأن كلام العقاد في معنى النفي فكأنه يريد أن يقول أنه بالرغم من كثرة أهله وأصحابه إلا أنه ليس له في الورى حبيب .

٣- أخدان : الخدن والخدين : الصديق والجمع أخدان والخدن هو الذي يخادنك ، فيكون معك في كل أمر ظاهر وباطن ومنه قوله تعالى :﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾

الملامح الفنية والتعليق

هذه القصيدة عارض بها " العقاد " قصيدة " ابن الرومي " النونية ، التي قالها في مدح الوزير " اسماعيل بن بلبل ، وكان بن الرومي قد بدأها بمقدمه غزلية طويلة ، ورائعة في وصف محبوته ، وصفاً حسياً ومعنوياً ، ثم وصف النساء عامة وما يتمتعن به من كيد ومكر وخداع . ثم انتقل إلى غرضه الأصيل وهو مدح الوزير إسماعيل بن بلبل ، لكن العقاد حينما عارضه لم يعارضه إلا في المقدمة الغزلية التي راقت له وأطلق على قصيدته عنوان (الحب الأول) ، ولذا فإن الغرض الأصيل في هذه القصيدة هو الغزل كما يوحي عنوانها .

وإذا كان " ابن الرومي " قد نهج في قصيدته التي مطلعها :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان

فيهن نوعان تفاح ورمان

وفوق زينك أعناب مهدلة

سود لهن من الظلماء ألوان

نهج القدماء في إنشاء القصيدة الغنائية ، لكن بصورة متطورة ، فرضتها طبيعة الحياة في العصر العباسي ، فإن العقاد يعد رائداً من رواد التجديد في الشعر ، وأحد الداعين إلى بناء القصيدة بناء موضوعياً متماسكاً؛ بحيث لا يستقل بيت عما سبقه وما لحقه ، ولا يمكن الانتقال من موضوع إلى آخر ، لذا فقد جعل موضوع معارضته " لابن الرومي " هو الغزل ، لكنه على الرغم من دعوته إلى الوحدة الموضوعية والعضوية في القصيدة إلا إنه بدأها بمقدمة في وصف الطبيعة وسحرها ؛ تمهيداً للدخول في موضوعه الأصيل وهو الغزل ، وهو في ذلك متأثر " بابن الرومي " الذي عشق الطبيعة ورأى فيها جمال المرأة وحسنها .

والحق أن مقدمة قصيدة " العقاد " جاءت متناسبة مع الغرض الأصيل لموضوعها الذي وضعت من أجله وهو الغزل ؛ إذ إن هناك علاقة - في مفهوم الشاعر - بين الطبيعة والمرأة ؛ لذا تأتي المقدمة وكأنها جزء من القصيدة ، لا يشعر القارىء بأن هناك فاصلاً بين المقدمة والموضوع.

وأول ما يطالعنا في هذه القصيدة هو أن " العقاد " قد وظف الطبيعة واستخدمها بما يتناسب وميوله واتجاهه في الغزل ، فنراه قد استعان في موضوعه بعناصر الطبيعة الجميلة الساحرة ، من زهور ذات رائحة شذية ، وورود ذات ألوان باهرة ، تثير النفس وتحرك العاطفة ، وتبعث على الراحة، وتلفت الأنظار ، وهذا دليل على أن غزله معنوي ، تحس من خلاله حرارة الشوق وتحرق الوجدان ، وليس غزلاً حسياً مادياً . والأبيات من ١: ٤ توحي وتؤكد صدق ما ذهبنا إليه .

وهكذا نرى أن الشاعر قد وظف الطبيعة توظيفاً يتلاءم مع ميوله واتجاهه في الحب والغزل ، كما دّل استخدامه للطبيعة على حبه لها وولعه بها .

وباستقراء القصيدة نرى أن " العقاد " قد عالج موضوعه بما يتوافق وتوجهه في الحب والغزل ، وقد سيطرت عليه نزعته الخاصة في هذا الموضوع .

فحينما ننظر إليه لنرى كيف عالج وصف محبوبته ، وعبر عن تجربته نجد أنه وصفها بالجمال الخالص في مظهرها ومخبرها وروحها وجسدها ، وفي هجرها ووصلها ، ولعل ذلك راجع إلى مزاجه وهيامه بحبه، فاستوى عنده وصالها وهجرها، ورأى فيهما متعة ولذة ، وقد استطاع " العقاد " أن يعبر عن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس بقوله :

بالغصن شبه من ليس يعرفه
وإنما هو الرائين بستان
يا من يراني غريقاً في محبته
وجداً ويسألني هل أنت غصان

واضـــيعة الحـــب أبديـــه وأكتمـــه

ومـن عنيـت بـه عـن ذاك غفـلان

إن التعـــاطف بـــالأرواح بغيتنـــا

وفـي الوجـوه علـى الأرواح عنـوان

كمـا نلحـظ في الآبيـات إشـارة صـريحة إلى أن الشـاعر لا يريـد التواصـل المـادي، بـل يهـدف إلى التواصـل والتعـاطف الروحـي الـذي يمـلأ بـالأنس والبهجـة والسـرور أوقاتـاً طويلـة ، ولا يتحقـق ذلـك مـن التواصـل المـادي ، الـذي يـزول بـزوال أسـبابه ودواعيـه . ومـن ثـم نسـتطيع أن نقـول أن الشـاعر قـد أعطانـا خلاصـة فكـره وعصـارة تجربته وخبرته في الحب والغرام ومعرفته بطبائع النساء .

هـذا مـن ناحيـة الموضـوع وكيـف عالجـه الشـاعر وسـار فيـه ، أمـا مـن الناحيـة الشكلية فإننـا نـراه قـد اختـار ألفاظـه ومعجمـه الشـعري بدقـة فائقـة وبراعـة عاليـة حيـث دلـت ألفاظـه وتراكيبـه علـى مـا يـدور في خلـده مـن مشـاعر وأحاسـيس ، وكشـفت عـن تجربتـه وعاطفتـه كشـفاً صـحيحاً ، وهـذا مـا ينبغـي علـى الشـاعر المجيـد حـين يريـد معالجـة تجربـة مـن التجـارب ، فعليـه أن يعتمـد لنفسـه كمّـاً ضـخماً مـن الكلمـات الـتي يخـدم أو يعـرض بهـا موضـوعاً مـا ، فيجـب أن تكـون هـذه الكلمـات ملائمـة ودالـة علـى هـذا المعنـى الـذي يسـوقه . وهـذا مـا يطلـق عليـه المعجـم الشـعري ، وهـو بهـذا الوصـف يسـاعدنا علـى معرفـة الشـاعر ونفسـيته ، وذلـك مـن خـلال نوعيـة الكلمـات الـتي يكثـر دورانهـا في شـعره ؛ إذ إن مـا يعـبر الشـاعر عنـه حقـاً هـو طبعـه وشخصـيته العميقـة ، ومـا يفضـله ومـا ينفـر منـه ، ومظهـره ونمـط حياتـه ونفـوذه واتزانه وحيويته وفتوره .

ولـذا فـإن اختيـار الشـاعر لكلمـات معينـة يرجـع لأسـباب نفسـية ، أو لاتجـاه شـعري ؛ إذ إن لغـة الشـاعر جـزء مـن تركيبتـه النفسـية ، وأن انتقـاءه للكلمـات

والمفردات يعتمد على طبيعة ما يريد الإفصاح عنه من داخل تكوينه الذاتي ، ومما ترسب من أعماقه .

وبناء على ذلك . فإننا إذا نظرنا إلى معجم " العقاد " الشعري في هذه القصيدة نرى أنه كان يعرف الألفاظ والتراكيب التي تولد الانفعال ، كما كانت لديه موهبة وقدرة على وضع الألفاظ في تتابع إيقاعي ، يدل على ما في نفسه من انفعال شعوري ، هذا بالإضافة إلى عنايته باختيار الكلمات التي لها جرس يضفي على دلالة الكلمة ملابسات ومشاعر في نفسه ، أو تكون بعيدة عن النفس البشرية بصفة عامة .

وأول ما يطالعنا في هذه القصيدة من مختارات لفظية هي تلك الألفاظ التي توحي باندماجه في الطبيعة ، وتوحي بمكنون نفسه الشاعرة التي تعشق الجمال الطبيعي ، ولعله متأثر في ذلك " بابن الرومي " الذي كان مبرزاً في هذا المضمار ، ومن هذه الألفاظ ، زهر - أطيار - أفنان - الربيع - رضوان - وشائع النور - البستان - الأرض حالية - الماء - الشمس - الآفاق صافية - أثمار - النسيم - روض - ورد - الياسمين - أغصان - القرنفل - البنفسج - الليمون - الليل - بلابل - كروان - الصبح - أنوار - الشرق والغرب - أسحار وأصلان - الفضاء - الفردوس - الطبيعة - النهار - شجر - غزلان - الحوت - حمائم - الدراري - ظلام - موج - سلسبيل - شهد - النيل - النحل - البدر - الكواكب ، إلى غير ذلك من عناصر الطبيعة ومفرداتها .

كما نلحظ - كذلك - تناثر بعض المفردات التي توحي بالحب والسعادة والرضا والتفاؤل ، وتتناسب والموضوع الذي يتحدث فيه مثل : يهنيك - طوباك - ينشد - رضا - نعيم الخلد - باسمة - تضحك - مستأنسات - ألحان - فرح - فرحان - المحب - عرس - محبة - وجد - محبين - الحسن - التعاطف بالأرواح -

حب الجمال - نجوى - أحضان - عفة - ندمان - جوهر- ضوء قلبي - ضاحكة - أغنم - وصل- عطف - سعادة - وصال - بهجة - الهوى - نشوان - أطرب - أحباب - أخدان - الحور، إلى غير ذلك من الألفاظ الرقيقة العذبة التي تشيع جواً من التفاؤل والحب في داخل القصيدة، وتوحي بمكنون نفسه العاشقة للحياة المتطلعة إلى الحب والجمال.

كما نلحظ - أيضاً - في معجم " العقاد " الشعري في هذه القصيدة بعض الألفاظ الغريبة، وكان في استطاعته أن يأتي بغيرها؛ وبخاصة وهو الداعي إلى التجديد الشعري وتمسكه وإفادته من تراث الماضي وافتتانه به يصور؛ جعلت معجمه الشعري مميزاً عن شعراء عصره ومدرسته.

ولعل السر في استعماله لبعض الألفاظ الغريبة أنه كان يتعالى بها على معاصريه الذين كانوا ينظرون إليه نظرة متواضعة، من حيث المؤهل الذي وصل إليه، فما كان منه إلا أن استوعب الغريب والمهجور ليتخذه معجماً شعرياً خاصاً ليتحدى أصحاب المؤهلات العالية الذين لا يصلون إليه، أو ليتحدى شيوخ الشعراء - آنذاك - من أمثال: " محمد عبد المطلب " و" حفني ناصف " و" علي الجارم " من أصحاب مدرسة الأسلوب الذين لا يرون في الشعر إلا استعارة لطيفة، أو لفظاً فخماً جميلاً. ومن هذه الألفاظ الغريبة: ألاقة بمعنى متألقة - إرغان بمعنى إنصات - رقان أي مزركش - روع أي صباحه الوجه وجماله - تنصاح أي تنجلي - القنعان أي الذي يرضي بالقليل - البحر النجر أي الأصل - الأوهاق أي الأحابيل - ثغبان - أي غدران.

وهكذا نرى من خلال القصيدة أن معجم " العقاد " الشعري قد عبر عن حالته النفسية واتجاهه الفكري وتوجهه في الغزل، إذا اعتبرنا أن الأسلوب هو الرجل، أو أن الأسلوب صورة لصاحبه.

وإذا انتقلنا إلى جانب آخر من الجوانب الشكلية في القصيدة وهو الصورة والخيال ، فإننا نذكر أولاً أن الصورة الأدبية من الأمور التي يرتكز عليها الشعر ، فهي المعرض الذي يعرض فيه الشاعر أفكاره وخواطره ، كما أنها تتلون بعاطفته وانفعالاته وتتكون من الكلمات والعبارات في نسق يخطط له الأديب في اختيار نقطة البداية ولحظة النهاية ، وفي اختيار اللغة المناسبة ، والوزن القادر على الإيحاء بالعاطفة الموفقة التي يدل تكرار الصوت فيها أو تنوعه على حالة نفسية مقصودة .

أو هي التركيب القائم على الإصابة في التنسيق - الفني الحي - لوسائل التعبير التي ينتقيها الشاعر المطلق من عالم المحسنات ؛ ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى ، في إطار قوي تام محس مؤثر على نحو يوقظ الخواطر والمشاعر في الآخرين .

وهي بذلك تعد أصدق تعبير عما يجول في النفس من خواطر وأحاسيس وأدق وسيلة تنقل ما فيها إلى الغير بأمانة وقوة ، وأجود موصل إلى الآخر في سرعة وإيجاز وبفرة ، كما أنها أجمل وأنضر طريقة في شد العقل والخيال إليها ، وربط الإحساس بها وتجاوب المشاعر لها ، وإحياء العاطفة وسحر النفس .

والصورة بهذا المعنى تحتاج إلى مصور بارع ليجمع شتاتها وينسق ألوانها حتى تكون موحية ومعبرة عن خواطره وأفكاره وتجربته ، وأهم هذه الأدوات الألفاظ والعبارات وشيء من الخيال .

والصورة الرائعة يصل الشاعر من خلالها وبها إلى قلوب الآخرين ، ويؤثر فيهم وإذا نظرنا إلى قصيدة " العقاد " لنتعرف إلى أهم خصائص الصورة الشعرية فيها ، نجد أولاً : أن مدرسة الديوان وعلى رأسها " العقاد " جعلوا الصورة الشعرية وسيلة لإظهار علاقة الشيء بنفس الشاعر، والتعبير عن الأثر النفسي الذي انطبع في وجدانه ومشاعره ، حتى يثير في نفوس سامعيه وقارئيه انفعالاً مماثلاً للانفعال

الذي أحس به ، وبذلك نقلوا الخيال - وهو أهم عناصر الصورة - من مجاله الحسي الذي كان يدور فيه وكان يعني بإعطاء صورة للشكل الخارجي للأشياء وتجسيمها لمجرد الجمع بين صفات حسية دون ارتباط بأحاسيس الشاعر ووجدانه ، إلى وسيلة لإظهار مراد الشاعر والتأثير به في نفوس الآخرين .

هذا بالإضافة إلى تجديدهم في الخيال وعدم الوقوف به عند استعمال العرب بل اتجهوا إلى أخيلة اخرى مستقاة من ثقافاتهم وقراءاتهم في أدب الغرب ومن حاستهم الفنية المتذوقة للجمال .

لذا فقد انخرط " العقاد " في سلك الشعراء الوصافين الذين يعمدون إلى تجسيد مشاعرهم تجسيداً حسياً في صورة حركية ، ذلك ليبعد الغربة عن نفسه ، وينفض عنه أسباب العزلة ، ويحيل الطبيعة إلى شيء أليف محبب.

وأول ملامح صور " العقاد " أنه ينقل الشيء الحقيقي ، لا كما يبدو للحس ، بل ينقل لنا شكل هذا الشيء في نفسه الشاعرة التي تنظر إلى معاني الأشكال المجردة لا إلى مادتها المحسوسة ، كأن يمضي إلى الطبيعة ليتلقى منها ضرباً عديدة من الإيحاء أو ينشد لديها المفتاح الرئيس لأنغامه الكبرى، ثم يخلق من خياله الانسجام الفني الذي يصوغه على هذا الأساس ، يقول " العقاد " في تصوير الربيع والطبيعة :

هذا الربيع تجلى في مواكبه
وهكذا الدهر آن بعدها آنُ
تفتحت عنه أكمام السماء رضا
وزفه من نعيم الخلد رضوان
وشائع النور في البستان باسمة
والأرض حالية والماء جذلان

الشـــمس تضـــحك والآفـــاق صـــافية

جلـــواء والـــروض بالأثمـــار فينـــان

وللنســـــيم خفـــــوق فـــــي جوانبـــــه

وللطيـــــور تـــــرانيم وألحـــــان

فالصـورة تمثـل الربيـع في جمالـه وروعتـه ، لكـن الشـاعر ينفـذ مـن خـلال هـذا المنظـر الحسـي ، إلى طويـة نفسـه فيجـد أن السـماء قـد رضـيت عـن الربيـع فصـارت صـافية ، وأصـبح البسـتان في حالـة مـن السـرور والفـرح ، انسـحبت على كـل الأشـياء في هـذا البسـتان مـن مـاء وورد وزهـور ، حتـى الشـمس بأشـعتها الـتي تملأ الكـون دفئـاً وحـرارة ، خلـع عليهـا مـن إحساسـه وعاطفتـه فجعلـها ضـاحكة مسـرورة . ويمتـزج هـذا السـرور بتلـك الحركـة الرقيقـة المنبعثـة مـن ذلـك النسـيم الـذي يلـف جنبـات الكـون ، فيغري الطيور بالغناء والشدو .

وهـو هنـا متـأثر " بـابن الرومـي " الـذي كـان مولعـاً بتصـوير الطبيعـة ووصـفها ، إذ كانـت تمثـل عنـده حيـاة النفـوس والقلـوب ، وأنهـا حيـاة تتحـرك في كـل المخلوقـات مـن أرض وسمـاء ونبـات وطـير ومـاء وأثمـار ، إلى غـير ذلـك مـن عناصـر الطبيعـة العديدة .

وعلـى الـرغم مـن ذلـك فقـد كـان " العقـاد " هنـا أكثـر عمقـاً في تصـويره للوجـد الـذي ألّـم بـه مـن المعشـوق مـن " ابـن الرومـي " ذلـك أن الأول صـور الوجـد في حديثـه إلى الزهـر الـذي أمضـه ثقـل الثمـار عليـه ، وتنـاوب الطـير فوقـه ولا عليـه أن يحـزن مثـل المحـب ، لأنـه لـيس بإنسـان ظـامىء معـذب لكنـه ريـان نـاعم الملمـس ، غـض البـدن ، طري القوام .

وصـورة أخـرى " للعقـاد " في هـذه القصـيدة ، تتمثـل في تصـوير إحساسـه بمحبوبتـه ، فيخلـع على الكـون - بمـا فيـه مـن عناصـر مختلفـة - تجربتـه وإحساسـه ،

فيصف هذه المشاهد من خلال آثار المحبوبة في نفسه ، فيرى الكون وقد غمره الفرح والسرور ، وسرت في أرجائه البهجة حتى لم يعد يتسع برحابته لهذا الفرح ، وذلك العرس الذي أقامته الدنيا ، وانشغل عنه الحب الذي أضناه الوجد والهوى ، يقول : " العقاد ":

ضاق الفضاء بما يحويه من فرح

فكل ما فضاء الله فرحان

إلا المحب الذي لا حبه دنس

ولا مودته خب وإدهان

نفاه عن عرس الدنيا شواغله

إن الحداد عن الأعراس شغلان

فهذه صورة دقيقة وعميقة تلاءمت أجزاؤها وعناصرها ، وأوشكت على الكمال ، لولا توسطه في بعض الصور الجزئية التي أدت إلى تمزيق النسيج المتلائم وتهتك النظم والوحدة التي كان يتزعمها وينادي بها في النقد، ومن هذه الصور الجزئية استعماله لكلمة (ضاق) التي تدل على الضيق والانحسار وكان الأولى أن يستعمل كلمة (فاض) بدلاً منها لتناسب مع عناصر الصورة ، كما استعملها فيما بعد في قوله :

فاض الهيام على قلبي ففاض به

نبع له من وراء الدمع شطآن

كما جاءت كلمات : خب ، ادهان ، نفاه ، شواغله ، الحداد ، شغلان في غير مواضعها ، مما شوه الصورة ومزق وحدتها ، ولم تعبر عن مراده وإحساسه تعبيراً دقيقاً .

ومن الصورة التي برع " العقاد " في تنسيقها ونسجها ، صورة حركة نفسه وما بداخلها من خواطر ومشاعر ، ومن ذلك تصويره لتلك الليلة التي نعم فيها

بالوصل مع حبيبته بأنها لن تعود ؛ إذ حطمت أنوال حائكها ، وقد كان العيش قبلها شوقاً ينعم به وبعدها كان ذكراً وتحناناً ، وفي أثنائها تمتع بالوصال ، وألوان من الجنات الدائمة حتى طالت ولا يدري أهي ليلة أم أنها أزمان ؟ ، يقول " العقاد " في وصف هذه الحركة النفسية :

يا ليلة حُطمت أنوال حائكها

فلا يحاك لهما في الدهر ثنيات

العيش من قبلها شوق نعمت به

والعيش من بعدها ذكر وتحنان

طالت ولا غرو فالجنات خالدة

وفي الوصال من الجنات ألوان

أصبحت والله لا أدري لبهجتها

أليلة سلفت أم تلك أزمان

فقد جمع في هذه الصورة حركة نفسه ومشاعره في الماضي والحاضر والمستقبل، وقد جمعت الليلة كل هذه الأزمان ، واتسعت كاتساع الجنات ودوامها.

لذا جاءت الصورة منتظمة الأبعاد ، متناسقة الألوان وخاصة ألوان الجنات المليئة بشتى الثمار ، مما جعل الصورة معبرة عن نفسية " العقاد " تعبيراً دقيقاً .

وإذا كان " العقاد " قد أوقفنا بهذه الصورة على شعوره أثناء لقاء محبوبته ففي المقابل يصور فقده لها تصويراً ينم عن حبه ووله وشدة وجده ومعاناته من هجرها ، فيقول :

يا جوهراً بت أرعاه على أمم

رعى الشحيح ، ومالي فيه سلطان

مـا فـي يـدي منـه لا عـين ولا أثـر
ولـــي عليـــه مغـــاليق وأعيـــان
قد نلت ما نلت من حظ به عرضاً
وقـد تـولى ، فحظـى منـه فقـدان
إنـي إلـى الرعـى مـن عينيـك مفتقـر
يـا ضـوء قلبـي ، فـإن القلـب مُدجان

فقـد اسـتطاع أن يجمـع في هـذه الصـورة بـين صـفات محبوتـه ، ذلـك الجـوهر المضـيء الـذي بـات يرعـاه عـن كثـب و بـين ذلـك القلـب المظلـم ببعـد محبوبتـه عنـه ، كمـا أن اسـتعماله لكلمـة (الرعـي) أعطـت للصـورة مسـاحة أكـبر وأرحـب ممـا لـو اسـتعمل كلمـة (النظـر) ؛ إذ إنهـا - أي الثانيـة - تعـني النظـر فقـط ، أمـا (الرعـي) فـتعني الرعايـة والاهتمـام والمسئولية تجـاه المحبـوب ، وهـذه صـورة جزئيـة أسـهمت في إبراز الصورة الكلية وإيضاحها.

وبعـد .. فقـد اسـتطاع الشـاعر أن يعـبر عـن تجربتـه أصـدق تعـبير وأجملـه، مـن خـلال معالجـة فنيـة أوقفتنـا علـى شـاعريته وتمكنـه مـن أدوات فنـه ، الـتي سـاعدته في الإتيـان بـبعض الصـور العميقـة والدقيقـة - في الغالـب - وإن اتسـم الـبعض الآخـر بالغموض والإبهام .

كمـا ينبغـي أن نشـير إلى أن " العقـاد " في معارضـته هـذه قـد اسـتفاد كـثيراً مـن " ابن الرومي " في جوانب متعددة .